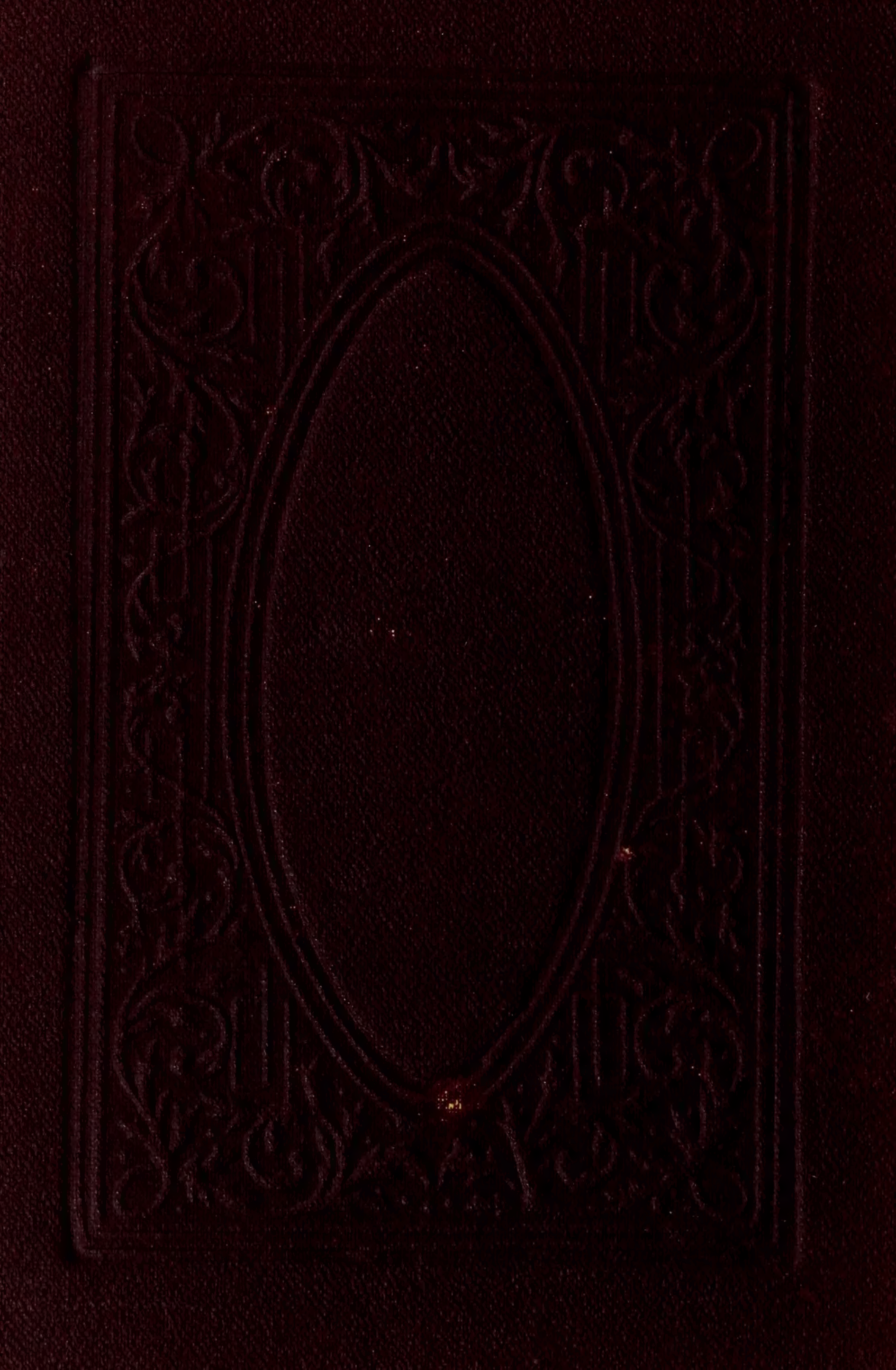






رسالة التوحيد

تأليف

المرحوم المغفور له الشيخ محمد عبده المصري مفتي
الديار المصرية المتوفي يوم الثلاثاء ٨ جمادى
الاولى سنة ١٣٢٣ هـ الموافق ١١ يوليو
سنة ١٩٠٥ م تغمده الله برحمته
وأسكنه فسيح جنته

الطبعة الاولى
بالمطبعة العامرة الخيرية لمالكها ومديرها
(السيد عمر حسين الخشاب)
سنة ١٣٢٤
هجرية



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين

﴿ وبعد ﴾ فلما كنت في بيروت من أعمال سوريا أيام بعدي عن مصر عقب حوادث سنة ١٢٩٩ هجريه ودعيت فى سنة ١٣٠٣ لتدريس بعض العلوم فى المدرسة السلطانيه ومنها كان علم التوحيد رأيت أن المختصرات في هذا الفن قدلا تأتي على الغرض من افادة التلامذة والمطولات تعلوعن أفهامهم والمتوسطات ألفت لز من غير زمانهم فرأيت من الاليق أن أملى عليهم ماهو أمس بحالهم فكانت أمالي مختلفة تتغاير بتغاير طبقاتهم أقربها الى كفاية الطالب ما أملى على الفرقة الاولى فى أسلوب لا يصعب تناوله وان لم يعهد تداوله تمهيد مقدمات وسير منها الى المطالب من غير نظر الا الى صحة الدليل وان جاء فى التعبير على خلاف

ما عهد من هيئة التأليف رامياً الى الخلاف من مكان بعيد حتى قد
لا يدركه الا الرجل الرشيد غير ان تلك الامالي لم تحفظ الا في
دفاتر التلامذة ولم أستبق لنفسي منها شيأ وعرض بعد ذلك ما
استقدمني الى مصر وكان من تقدير الله ان أشتغل بغير التعليم حتى
أتى النسيان على ما أمليت وذهب عن الخاطر جميع ما ألقيت الى
أن خطر لي من مدة أشهر خاطر العود الى ما تهواه نفسي ويصبو
اليه عقلي وحسي وان أشغل اوقات فراغي بمدارسة شيء من علم
التوحيد علماً مني انه ركن العلم الشديد فذكرت سابق العمل وتعلق
بمثله الامل ولكيلا أنفق من الزمن ما أنا في أشد الحاجة اليه في
انشاء ما أرى التعويل عليه عزمت ان اكتب الى بعض التلامذة
ليرسل الي ما تلقاه بين يدي وذكرت ذلك لاخي فأخبرني انه
نسخ ما أملي على الفرقة الاولى فطلبته وقرأته فاذا هو على مقربة مما
أحب قد يحتاج اليه القاصر وربما لا يستغنى عنه المكاثر على اختصار
فيه مقصود ووقوف عند حد من القول محدود قد سلك في العقائد
مسلك السلف ولم يعب في سيره آراء الخلف وبعد عن الخلاف
بين المذاهب بعد مُمليه عن أعاصير المشاغب لكن وجدت فيه
ايجازا في بعض المواضع قد لا ينفذ منه ذهن المطالع واغفالا لبعض

ما تمس الحاجة اليه وزيادة عما يجب فى مختصر مثله أن يقتصر عليه فبسطت بعض عباراته وحررت ما غمض من مقدماته وزدت ما أغفل وحذفت ما فضل وتوكلت على الله فى نشره راجيا أن لا يكون في قصره ما يحمل على إغفال أمره أو يغض من قدره فما من أحد بأصغر من أن يعين ولا بأكبر من أن يعان والله وحده ولي الامر وهو المستعان

﴿ مقدمات ﴾

التوحيد علم يبحث فيه عن وجود الله وما يجب أن يثبت له من صفاته وما يجوز أن يوصف به وما يجب أن ينفى عنه وعن الرسل لاثبات رسالتهم وما يجب أن يكونوا عليه وما يجوز أن ينسب اليهم وما يمتنع أن يلحق بهم أصل معنى التوحيد اعتقاد أن الله واحد لا شريك له وسمي هذا العلم به تسمية له بأهم أجزائه وهو اثبات الوحدة لله في الذات والفعل فى خلقة الأكوان وأنه وحده مرجع كل كون ومنتهى كل قصد وهذا المطلب كان الغاية العظمى من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم كما تشهد به آيات الكتاب العزيز وسيأتي بيانه وقد يسمى علم الكلام إما لأن أشهر مسئلة وقع فيها الخلاف بين علماء القرون الاولى هي أن كلام الله المتلو حادث أو قديم وإما لان مبناه الدليل العقلى وأثره يظهر من كل متكلم في كلامه وقلما يرجع فيه الى النقل اللهم الا بعد تقرير الاصول

الاولى ثم الانتقال منها الى ما هو أشبه بالفرع عنها وان كان أصلا لما يأتى بعدها وإما لانه فى بيان طرق الاستدلال على أصول الدين أشبه بالمنطق في تبيينه مسالك الحجة في علوم أهل النظر وأبدل المنطق بالكلام للتفرقة بينهما

هذا النوع من العلم علم تقرير العقائد وبيان ماجاء في النبوّات كان معروفا عند الامم قبل الاسلام ففى كل أمة كان القائمون بأمر الدين يعملون لحفظه وتأييده وكان البيان من أوّل وسائلهم الى ذلك لكنهم كانوا قلما ينحون في بيانهم نحو الدليل العقلى وبناء آرائهم وعقائدهم على ما في طبيعة الوجود أو ما يشتمل عليه نظام الكون بل كانت منازع المعقول في العلم ومضارب الدين فى الالزام بالعقائد وتقريبها من مشاعر القلوب على طرفي نقيض وكثيرا ما صرح الدين على لسان رؤسائه أنه عدوّ العقل نتائجه ومقدماته فكان جل ما فى علوم الكلام تأويل وتفسير وادهاش بالمعجزات أو إلهاء بالخيالات يعلم ذلك من له إلمام بأحوال الامم قبل البعثة الاسلامية

جاء القرآن فانتهج بالدين منهجا لم يكن عليه ماسبقه من الكتب المقدسة منهجا يمكن لاهل الزمن الذي أنزل فيه ولمن يأتي بعدهم أن يقوموا عليه فترك الاستدلال على نبوّة النبي صلى الله عليه وسلم بما عهد الاستدلال به

على النبوّات السابقة وحصر الدليل في حال النبي مع نزول الكتاب عليه في شأن من البلاغة يعجز البلغاء عن محاكاته فيه ولو في مثل أقصر سورة منه وتناول من مقام الالوهية ما أذن الله لنا أو ما أوجب علينا أن نعلم لكن لم يطالب التسليم به لمجرّد أنه جاء بحكايته ولكنه ادعى وبرهن وحكى مذاهب المخالفين وكرّ عليها بالحجة وخاطب العقل واستنهض الفكر وعرض نظام الأكوان وما فيها من الاحكام والاتقان على أنظار العقول وطالبها بالامعان فيها لتصل بذلك الى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا اليه حتى إنه فى سياق قصص أحوال السابقين كان يقرّر أن للخلقة سنة لا تغير وقاعدة لا تتبدل فقال (سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) وصرح (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) واعتضد بالدليل حتى في باب الادب فقال (ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليّ حميم) وتآخى العقل والدين لاول مرة فى كتاب مقدّس على لسان نبي مرسل بتصريح لا يقبل التأويل وتقرر بين المسلمين كافة الا من لا ثقة بعقله ولا بدينه أن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به الا من طريق العقل كالعلم بوجود الله وبقدرته على ارسال الرسل وعلمه بما يوحى به اليهم وارادته لاختصاصهم برسالته وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة وكالتصديق بالرسالة نفسها كما أجمعوا على أن

الدين ان جاء بشيء قد يعلو على الفهم فلا يمكن أن يأتي بما يستحيل عند العقل

جاء القرآن يصف الله بصفات وان كانت أقرب الى التنزيه مما وصف به في مخاطبات الاجيال السابقة فمن صفات البشر مايشاركها في الاسم أو في الجنس كالقدرة والاختيار والسمع والبصر وعزا اليه أمورا يوجد ما يشبهها في الانسان كالاستواء على العرش وكالوجه واليدين ثم أفاض في القضاء السابق وفي الاختيار الممنوح للانسان وجادل الغالين من أهل المذهبين ثم جاء بالوعد والوعيد على الحسنات والسيآت ووكل الامر فى الثواب والعقاب الى مشيئة الله وأمثال ذلك مما لا حاجة الى بيانه فى هذه المقدمة فاعتبار حكم العقل مع ورود أمثال هذه المتشابهات فى النقل فسح مجالا للناظرين خصوصا ودعوة الدين الى الفكر فى المخلوقات لم تكن محدودة بحدّ ولا مشروطة بشرط للعلم بأن كل نظر صحيح فهو مؤدّ الى الاعتقاد بالله على ما وصفه بلا غلوّ في التجريد ولا دنوّ من التحديد

مضى زمن النبي صلى الله عليه وسلم وهو المرجع في الحيرة والسراج فى ظلمات الشبهة وقضى الخليفتان بعده ما قدر لهما من العمر فى مدافعة الاعداء وجمع كلمة الاولياء ولم يكن للناس من الفراغ ما يخلون فيه مع عقولهم ليبتلوها بالبحث فى مباني عقائدهم وما كان من اختلاف قليل

رد اليهما وقضي الامر فيه بحكمهما بعد استشارة من جاورهما من أهل البصر بالدين ان كانت حاجة الى الاستشارة وأغلب الخلاف كان في فروع الاحكام لا في أصول العقائد ثم كان الناس في الزمنين يفهمون اشارات الكتاب ونصوصه يعتقدون بالتنزيه ويفوضون فيما يوهم التشبيه ويرون أن له معنى غير ما يفهمه ظاهر اللفظ

كان الامر على ذلك الى أن حدث ما حدث في عهد الخليفة الثالث وأفضي الى قتله هوى بتلك الاحداث ركن عظيم من هيكل الخلافة واصطدم الاسلام بأهله صدمة زحزحتهم عن الطريق التي استقاموا عليها وبقى القرآن قائما على صراطه (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) وفتح للناس باب لتعدى الحدود التي حدها الدين فقد قتل الخليفة بدون حكم شرعى وأشعر الامر قلوب العامة أن شهوات تلاعبت بالعقول في أنفس من لم يملك الايمان قلوبهم وغلب الغضب على كثير من الغالين فى دينهم وتغلب هؤلاء وأولئك على أهل الاصالة منهم فقضيت أمور على غير ما يحبون

وكان من العاملين فى تلك الفتنة عبد الله بن سبا يهودي أسلم وغلا فى حب على كرم الله وجهه حتى زعم أن الله حل فيه وأخذ يدعو الى أنه الاحق بالخلافة وطعن على عثمان فنفاه الى مصر فوجد فيها أعوانا على فتنته

الى أن كان ما كان مما ذكرنا ثم ظهر بمذهبه فى عهد علي فنفاه الى المدائن وكان رأيه جرثومة لما حدث من مذاهب الغلاة من بعده توالت الاحداث بعد ذلك ونقض بعض المبايعين للخليفة الرابع ماعقدوا وكانت حروب بين المسلمين انتهى فيها أمر السلطان الى الامويين غير أن بناء الجماعة قد انصدع وانفصمت عرى الوحدة بينهم وتفرقت بهم المذاهب فى الخلافة وأخذ الاحزاب فى تأييد آرائهم كل ينصر رأيه على رأي خصمه بالقول والعمل وكانت نشأة الاختراع فى الرواية والتأويل وغلا كل قبيل فافترق الناس الى شيعة وخوارج ومعتدلين وغلا الخوارج فى عهد مروان الاول فكفروا من عداهم ثم استمر عنادهم وطلبهم لحكومة أشبه بالجمهورية وتكفيرهم لمن خالفهم زمنا طويلا الى أن تضعضع أمرهم على يد المهلب بن أبي صفرة وانتشرت فارتهم فى بلاد المغرب فاشعلوا فيها الفتن وبقيت منهم بقية الى اليوم فى أطراف أفريقيا وناحية من جزيرة العرب وغلا بعض الشيعة فرفعوا عليا أو بعض ذريته الى مقام الالوهية أو مايقرب منه وتبع ذلك خلاف فى كثير من العقائد

غير أن شيأ من ذلك لم يقف فى سبيل الدعوة الاسلامية ولم يحجب ضياء القرآن عن الاطراف المتنائية عن مثار النزاع وكان الناس يدخلون فيه

أفواجا من الفرس والسوريين ومن جاورهم والمصريين والافريقيين ومن يليهم واستراح جمهور عظيم من العمل فى الدفاع عن سلطان الاسلام وآن لهم أن يشتغلوا فى أصول العقائد والاحكام بما هداهم اليه سير القرآن اشتغالا يحرص فيه على النقل ولا يهمل فيه اعتبار العقل ولا يغض فيه من نظر الفكر ووجد من أهل الاخلاص من انتدب نفسه للنظر فى العلم والقيام بفريضة التعليم ومن أشهرهم الحسن البصري فكان له مجلس للتعليم والافادة فى البصرة يجتمع اليه الطالبون من كل صوب وتمتحن فيه المسائل من كل نوع وكان قد التحف بالاسلام ولم يتبطنه أناس من كل ملة دخلوه حاملين لما كان عندهم راغبين أن يصلوا بينه وبين ما وجدوه فثارت الشبهات بعد ما هبت على الناس أعاصير الفتن واعتمد كل ناظر على ما صرح به القرآن من اطلاق العنان للفكر وشارك الدخلاء من حق لهم السبق من العرفاء وبدت رؤس المشاقين تعلو بين المسلمين وكانت أول مسئلة ظهر الخلاف فيها مسئلة الاختيار واستقلال الانسان بارادته وأفعاله الاختيارية ومسئلة من ارتكب الكبيرة ولم يتب اختلف فيها واصل بن عطاء مع أستاذه الحسن البصري واعتزله يعلم أصولا لم يكن أخذها عنه غير أن كثيرا من السلف ومنهم الحسن على قول كان على رأي أن العبد مختار فى أعماله الصادرة عن علمه وارادته

وقام ينازع هؤلاء أهل الجبر الذين ذهبوا الى أن الانسان فى عمله الارادى كأغصان الشجرة فى حركاتها الاضطرارية كل ذلك وأرباب السلطان من بنى مروان لايحفلون بالامر ولا يعنون برد الناس الى أصل وجمعهم على أمر يشملهم ثم يذهب كل الى ماشاء ثم لم يقف الخلاف عند المسئلتين السابقتين بل امتد الى اثبات صفات المعاني للذات الالهية أو نفيها عنها والى تقرير سلطة العقل فى معرفة جميع الاحكام الدينية حتى ما كان منها فروعا وعبادات (غلوا فى تأييد خطة القرآن) أو تخصيص تلك السلطة بالاصول الاولى على ما سبق بيانه ثم غالي آخرون وهم الاقلون فمحوها بالمرة وخالفوا فى ذلك طريقة الكتاب عنادا للاولين وكانت الاراء فى الخلفاء والخلافة تسير مع الاراء فى العقائد كأنها مبني من مباني الاعتقاد الاسلامي

تفرقت السبل باتباع واصل وتناولوا من كتب اليونان مالاق بعقولهم وظنوا من التقوى أن تؤيد العقائد بما أثبته العلم بدون تفرقة بين ما كان منه راجعا الى أوليات العقل وماكان سرابا في نظر الوهم فخلطوا بمعارف الدين ما لا ينطبق حتى على أصل من أصول النظر ولجوا في ذلك حتى صارت شيعهم تعد بالعشرات أيدتهم الدولة العباسية وهي في ريعان القوة فغلب رأيهم وابتدأ علماؤهم يؤلفون الكتب فأخذ المتمسكون بمذاهب

السلف يناضلونهم معتصمين بقوة اليقين وان لم يكن لهم عضد من الحاكمين

عرف الاولون من العباسيين ماكان من الفرس في اقامة دولتهم وقلب دولة الامويين واعتمدوا على ظلب الانصار فيهم وأعدوا لهم منصات الرفعة بين وزرائهم وحواشيهم فعلا أمر كثير منهم وهم ليسوا من الدين في شيء وكان فيهم المانوية واليزدية ومن لا دين له وغير أولئك من الفرق الفارسية فأخذوا ينفثون من أفكارهم ويشيرون بحالهم وبمقالهم الى من يرى مثل آرائهم أن يقتدوا بهم فظهر الالحاد وتطلعت رؤس الزندقة حتى صدر أمر المنصور بوضع كتب لكشف شبهاتهم وابطال مزاعمهم

فيما حوالي هـذا العهد كانت نشأة هذا العلم نبتا لم يتكامل نموه وبناء لم يتشامخ علوه وبدأ كما انتهى مشوبا بمبادئ النظر في الكائنات جريا على ماسنه القرآن من ذلك وحدثت فتنة القول بخلق القرآن أو أزليته وانتصر للاول جمع من خلفاء العباسيين وأمسك عن القول أو صرح بالازلية عدد غفير من المتمسكين بظواهر الكتاب والسنة أو المتعففين عن النطق بما فيه مجاراة البدعة وأهين في ذلك رجال من أهل العلم والتقوى وسفكت فيه دماء بغير حق وهكذا تعدى القوم حدود الدين باسم الدين على هذا كان النزاع بين ما تطرف من نظر العقل وما توسط أو غلا من

الاستمساك بظاهر الشرع والكل على وفاق على أن الاحكام الدينية واجبة الاتباع ما تعلق منها بالعبادات والمعاملات وجب الوقوف عنده ومامس بواطن القلوب وملكات النفوس فرض التروض عليه وكان وراء هؤلاء قوم من أهل الحلول أو الدهريين طابوا أن يحملوا القرآن على ماحملوه عند التحافهم بالاسلام وأفرطوا في التأويل وحولوا كل عمل ظاهر الى سر باطن وفسروا الكتاب بما يبعد عن تناول الخطاب بعدا الخطا عن الصواب وعرفوا بالباطنية أو الاسماعيلية ولهم أسماء أخر تعرف فى التاريخ فكانت مذاهبهم غائلة الدين وزلزال اليقين وكانت لهم فتن معروفة وحوادث مشهورة

مع اتفاق السلف وخصومهم فى مقارعة هؤلاء الزنادقة وأشياعهم كان أمر الخلاف بينهم جللا وكانت الايام بينهم دولا ولا يمنع ذلك من أخذ بعضهم عن بعض واستفادة كل فريق من صاحبه الى أن جاء الشيخ أبو الحسن الاشعري في أوائل القرن الرابع وسلك مسلكه المعروف وسطا بين موقف السلف وتطرف من خالفهم وأخذ يقرر العقائد على أصول النظر وارتاب فى أمره الاولون وطعن كثير منهم على عقيدته وكفره الحنابلة واستباحوا دمه ونصره جماعة من أكابر العلماء كامام الحرمين والاسفرايني وأبي بكر الباقلاني وغيرهم وسموا رأيه بمذهب أهل السنة

والجماعة فانهزم من بين أيدى هؤلاء الافاضل قوتان عظيمتان قوة الواقفين عند الظواهر وقوة الغالين فى الجرى خلف ماتزينه الخواطر ولم يبق من أولئك وهؤلاء بعد نحو قرنين إلا فئات قليلة في أطراف البلاد الاسلامية

غير أن الناصرين لمذهب الاشعرى بعد تقريرهم ما بنى رأيه عليه من نواميس الكون أوجبوا على المعتقد أن يوقن بتلك المقدمات ونتائجها كما يجب عليه اليقين بما تؤدى اليه من عقائد الايمان ذهابا منهم الى أن عدم الدليل يؤدي الى عدم المدلول ومضي الامر على ذلك الى أن جاء الامام الغزالي والامام الرازي ومن أخذ مأخذهم فخالفوهم في ذلك وقرروا أن دليلا واحدا أو أدلة كثيرة قد يظهر بطلانها ولكن قد يستدل على المطلوب بما هو أقوى منها فلا وجه للحجر في الاستدلال

أما مذاهب الفلسفة فكانت تستمد آراءها من الفكر المحض ولم يكن من هم أهل النظر من الفلاسفة الا تحصيل العلم والوفاء بما يندفع اليه رغبة العقل من كشف مجهول أو استكناه معقول وكان يمكنهم أن يبلغوا من مطالبهم ماشاؤا وكان الجمهور من أهل الدين يكنفهم بحمايته ويدع لهم من اطلاق الارادة ما يتمتعون به في تحصيل لذة عقولهم وافادة الصناعة وتقوية أركان النظام البشرى بما يكشفون من مساتير الاسرار المكنونة

في ضمائر الكون مما أباح الله لنا أن نتناوله بعقولنا وأفكارنا في قوله (خلق لكم ما في الارض جميعا) اذلم يستثن من ذلك ظاهرا ولا خفيا وما كان عاقل من عقلاء المسلمين ليأخذ عليهم الطريق أو يضع العقاب فى سبيلهم الى ما هدوا اليه بعد ما رفع القرآن من شأن العقل وما وضعه من المكانة بحيث ينتهي اليه أمر السعادة والتمييز بين الحق والباطل والضار والنافع وبعد ما صح من قوله عليه السلام انتم أعلم بشؤن دنياكم وبعد ما سن لنا في غزوة بدر من سنة الاخذ بما صدق من التجارب وصح من الآراء

لكن يظهر أن أمرين غلبا على غالبهم الاول الاعجاب بما نقل اليهم عن فلاسفة اليونان خصوصا عن ارسطو وافلاطون ووجدان اللذة فى تقليدهما لبادئ الامر والثاني روح الوقت وهو أشأم الأمرين زجوا بأنفسهم فى المنازعات التي كانت قائمة بين أهل النظر فى الدين واصطدموا بعلومهم في قلة عددهم مع ما انطبعت عليه نفوس الكافة فمال حماة العقائد عليهم وجاء الغزالي ومن على طريقته فأخذوا جميع ما وجد في كتب الفلاسفة مما يتعلق بالالهيات وما يتصل بها من الامور العامة أو أحكام الجواهر والاعراض ومذاهبهم فى المادة وتركيب الاجسام وجميع ما ظنه المشتغلون بالكلام يمس شيأ من مباني الدين واشتدوا فى

نقده وبالغ المتأخرون منهم فى تأثرهم حتى كاد يصل بهم السير الى ماوراء الاعتدال فسقطت منزلتهم من النفوس ونبذتهم العامة ولم تحفل بهم الخاصة وذهب الزمان بما كان ينتظر العالم الاسلامي من سعيهم

هذا هو السبب فى خلط مسائل الكلام بمذاهب الفلسفة في كتب المتأخرين كما نراه في كتب البيضاوي والعضد وغيرهم وجمع علوم نظرية شتى وجعلها جميعا علما واحدا والذهاب بمقدماته ومباحثه الى ماهو أقرب الى التقليد من النظر فوقف العلم عن التقدم

ثم جاءت فتن طلاب الملك من الاجيال المختلفة وتغلب الجهال على الامر وفتكوا بما بقي من أثر العلم النظر النابع من عيون الدين الاسلامي فانحرفت الطريق بسالكيها ولم يعد بين الناظرين فى كتب السابقين إلا تحاور في الالفاظ وتناظر فى الاساليب على أن ذلك فى قليل من الكتب اختارها الضعف وفضلها القصور ثم انتشرت الفوضي العقلية بين المسلمين تحت حماية الجهلة من ساستهم فجاء قوم ظنوا في أنفسهم مالم يعترف به العلم لهم فوضعوا مالم يعد للاسلام قبل باحتماله غير أنهم وجدوا من نقص المعارف أنصارا ومن البعد عن ينابيع الدين أعوانا فشردوا بالعقول عن مواطنها وتحكموا في التضليل والتكفير وغلوا في ذلك حتى قلدوا بعض من سبق من الامم فى دعوى العداوة بين العلم والدين وقالوا

لما تصف ألسنتهم الكذب هذا حلال وهذا حرام وهذا كفر وهذا اسلام والدين من وراء ما يتوهمون والله جل شأنه فوق ما يظنون وما يصفون ولكن ما ذا أصاب العامة في عقائدهم ومصادر أعمالهم من أنفسهم بعد طول الخبط وكثرة الخلط شر عظيم وخطب عميم

هذا مجمل من تاريخ هذا العلم ينبئك كيف أسس على قواعد من الكتاب المبين وكيف عبثت به في نهاية أمره أيدي المفرقين حتى خرجوا به عن قصده وبعدوا به عن حده

والذى علينا اعتقاده أن الدين الاسلامى دين توحيد في العقائد لا دين تفريق في القواعد العقل من أشدّ أعوانه والنقل من أقوى أركانه وما وراء ذلك فنزغات شياطين أو شهوات سلاطين والقرآن شاهد على كل بعمله قاض عليه في صوابه وخطله

الغاية من هـذا العلم القيام بفرض مجمع عليـه وهو معرفة الله تعالى بصفاته الواجب ثبوتها له مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به والتصديق برسله على وجه اليقين الذى تطمئن به النفس اعتمادا على الدليل لا استرسالا مع التقليد حسبما أرشدنا اليـه الكتاب فقد أمر بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون وما يمكن النفوذ اليه من دقائقه

تحصيلا لليقين بما هدانا اليه ونهانا عن التقليد بما حكى عن أحوال الامم في الاخذ بما عليه آباؤهم وتبشيع ما كانوا عليه من ذلك واستتباعه لهدم معتقداتهم وامحاء وجودهم الملي وحق ما قال فان التقليد كما يكون في الحق يأتي في الباطل وكما يكون في النافع يحصل في الضار فهو مضلة يعذر فيها الحيوان ولا تجمل بحال الانسان

أقسام المعلوم

يقسمون المعلوم الى ثلاثة أقسام ممكن لذاته وواجب لذاته ومستحيل لذاته ويعرّفون المستحيل بما عدمه لذاته من حيث هي أما الواجب فهو ما كان وجوده لذاته من حيث هي والممكن ما لا وجود له ولا عدم من ذاته وانما يوجد لموجد ويعدم لعدم سبب وجوده وقد يعرض له الوجوب والاستحالة لغيره واطلاق المعلوم على المستحيل ضرب من المجاز فان المعلوم حقيقة لا بد أن يكون له كون في الواقع ينطبق عليه العلم والمستحيل ليس من هذا القبيل كما تراه في أحكامه وإنما المراد ما يمكن الحكم عليه وإن في صورة يخترعها له العقل ليتوصل بها الى الحكاية عنه

حكم المستحيل

وحكم المستحيل لذاته أن لا يطرأ عليه وجود فان العدم من لوازم ماهيته

من حيث هي فلو طرأ الوجود عليه لسلب لازم الماهية من حيث هي عنها وهو يؤدي الى سلب الماهية عن نفسها بالبداهة فالمستحيل لا يوجد فهو ليس بموجود قطعاً بل لا يمكن للعقل أن يتصور له ماهية كائنة كما أشرنا اليه فهو ليس بموجود حتى ولا في الذهن

أحكام الممكن

من أحكام الممكن لذاته أن لا يوجد الا بسبب وأن لا ينعدم الا بسبب وذلك لأنه لا واحد من الامرين له لذاته فنسبتهما الى ذاته على السواء فان ثبت له أحدهما بلا سبب لزم رجحان أحد المتساويين على الآخر بلا مرجح وهو محال بالبداهة

ومن أحكامه أنه ان وجد يكون حادثاً لانه قد ثبت أنه لا يوجد الا بسبب فاما أن يتقدم وجوده على وجود سببه أو يقارنه أو يكون بعده والاول باطل وإلا لزم تقدم المحتاج على ما اليه الحاجة وهو ابطال لمعنى الحاجة وقد سبق الاستدلال على ثبوتها فيؤدى الى خلاف المفروض والثاني كذلك والا لزم تساويهما في رتبة الوجود فيكون الحكم على أحدهما بأنه أثر والثاني مؤثر ترجيحاً بلا مرجح وهو مما لا يسوغه العقل على أن علية أحدهما ومعلولية الآخر رجحان بلا مرجح وهو محال بالبداهة فتعين الثالث وهو أن يكون وجوده بعد وجود سببه فيكون مسبوقاً بالعدم

في مرتبة وجود السبب فيكون حادثا اذ الحادث ماسبق وجوده بالعدم فكل ممكن حادث

الممكن لا يحتاج في عدمه الي سبب وجودي لان العدم سلب والسلب لا يحتاج الي ايجاد بداهة فيكون عدم الممكن لعدم التأثير فيه أو لعدم ماكان سببا في بقائه أما في وجوده فيحتاج الى سبب وجودى ضرورة لان العدم لا يكون مصدرا للوجود فالموجود إن حدث فانما يكون حدوثه بايجاد وذلك كله بديهي

كما يحتاج الممكن للسبب في وجوده ابتداء يحتاج اليه في البقاء لما بينا أن ذات الممكن لا تقتضي الوجود ولا يرجح لها الوجود عن العدم الا للسبب الخارجى الوجودى فذلك لازم من لوازم ماهية الامكان لا يفارقها من حيث هي فلا يكون للممكن حالة يقتضي فيها الوجود لذاته فيكون في جميع أحواله محتاجا الى مرجح الوجود عن العدم لا فرق بين الابتداء والبقاء

معنى السبب على ما ذكرنا منشأ الايجاد ومعطي الوجود وهو الذى يعبر عنه بالموجد وبالعلة الموجدة وبالعلة الفاعلة وبالفاعل الحقيقي ونحو ذلك من العبارات التي تختلف مبانيها ولا تتباين معانيها وقد يطلق السبب أحيانا على الشرط أو المعد الذى يهيئ الممكن لقبول الايجاد من

موجده وهو بهذا المعنى قد يحتاج اليه في الابتداء ويستغنى عنه في البقاء وقد تكون الحاجة الى وجوده ثم عدمه ومن هذا القبيل وجود البناء فانه شرط في وجود البيت وقد يموت البناء ويبقى بناؤه وليس البناء واهب الوجود للبيت وانما حركات يديه وحركات ذهنه وأطوار ارادته شرط لوجود البيت على هيئته الخاصة به وبالجملة فيوجد فرق بين توقف الممكن على شيء وبين استفادته الوجود من شيء فالتوقف قد يكون على وجود ثم عدم كما في توقف الخطوة الثانية على الاولى فان الاولى ليست واهبة الوجود للثانية وإلا وجب وجودهما معهما مع أن الثانية لا توجد الا اذا انعدمت الاولى أما استفادة الوجود فتقتضي سبق مالك للوجود يعطيه للمستفيد منه وأن يكون وجود المستفيد مستمدا من وجود الواهب لا يقوم الا به فلا يستقل بنفسه دونه في حال من الاحوال

الممكن موجود قطعا

نري أشياء توجد بعد أن لم تكن وأخرى تنعدم بعد أن كانت كاشخاص النباتات والحيوانات فهذه الكائنات إما مستحيلة أو واجبة أو ممكنة لا سبيل الى الاول لان المستحيل لا يطرأ عليه الوجود ولا الي الثاني لان الواجب له الوجود من ذاته وما بالذات لا يزول فلا يطرأ عليه العدم ولا

يسبقه كما سيجيء في أحكام الواجب فهي ممكنة فالممكن موجود قطعا

وجود الممكن يقتضي بالضرورة وجود الواجب

جملة الممكنات الموجودة ممكنة بداهة وكل ممكن محتاج الى سبب يعطيه الوجود فجملة الممكنات الموجودة محتاجة بتمامها الي موجد لها فاما ان يكون عينها وهو محال لاستلزامه تقدم الشيء على نفسه وإما أن يكون جزأها وهو محال لاستلزامه أن يكون الشيء سببا لنفسه ولماسبقه ان لم يكن الاول ولنفسه فقط ان فرض أول وبطلانه ظاهر فوجب أن يكون السبب وراء جملة الممكنات والموجود الذى ليس بممكن هو الواجب اذ ليس وراء الممكن الا المستحيل والواجب والمستحيل لا يوجد فيبقى الواجب فثبت أن للممكنات الموجودة موجدا واجب الوجود

وأيضا الممكنات الموجودة سواء كانت متناهية أو غير متناهية قائمة بوجود فذلك الوجود إما أن يكون مصدره ذات الامكان وماهيات الممكنات وهو باطل لماسبق في أحكام الممكن من أنه لا شيء من الماهيات الممكنة بمقتض للوجود فتعين أن يكون مصدره سواها وهو الواجب بالضرورة

أحكام الواجب

القدم والبقاء ونفي التركيب

من أحكام الواجب أن يكون قديماً أزلياً لانه لو لم يكن كذلك لكان حادثاً والحادث ما سبق وجوده بالعدم فيكون وجوده مسبوقاً بعدم وكل ما سبق بالعدم يحتاج الى علة تعطيه الوجود وإلا لزم رجحان المرجوح بلا سبب وهو محال فلو لم يكن الواجب قديماً لكان محتاجاً في وجوده الى موجد غيره وقد سبق أن الواجب ما كان وجوده لذاته فلا يكون ما فرض واجباً واجباً وهو تناقض محال ومن أحكامه أن لا يطرأ عليه عدم وإلا لزم سلب ماهو للذات عنها وهو يعود الى سلب الشيء عن نفسه وهو محال بالبداهة

من أحكامه أن لا يكون مركباً اذ لو تركب لتقدم وجود كل جزء من أجزائه على وجود جملته التي هي ذاته وكل جزء من أجزائه غير ذاته بالضرورة فيكون وجود جملته محتاجاً الى وجود غيره وقد سبق أن الواجب ما كان وجوده لذاته ولانه لو تركب لكان الحكم له بالوجود موقوفاً على الحكم بوجود أجزائه وقد قلنا إنه له لذاته من حيث هي ذاته ولانه لا مرجح لأن يكون الوجوب له دون كل جزء من أجزائه بل يكون الوجوب لها أرجح فتكون هي الواجبة دونه

نفي التركيب في الواجب شامل لما يسمونه حقيقة عقلية أو خارجية فلا

يمكن للعقل أن يحاكي ذات الواجب بمركب فان الاجزاء العقلية لا بد لها من منشا انتزاع في الخارج فلو تركبت الحقيقة العقلية لكانت الحقيقة مركبة في الخارج وإلا كان ما فرض حقيقة عقلية اعتبارا كاذب الصدق لا حقيقة

كما لا يكون الواجب مركبا لا يكون قابلا للقسمة في أحد الامتدادات الثلاث أي لا يكون له امتداد لانه لو قبل القسمة لعادبها الى غير وجوده الاول وصار الى وجودات متعددة وهي وجودات الاجزاء الحاصلة من القسمة فيكون ذلك قبولا للعدم أو تركبا وكلاهما محال كما سبق

الحياة

معنى الوجود وان كان بديهيا عند العقل ولكنه يتمثل له بالظهور ثم الثبات والاستقرار وكمال الوجود وقوته بكمال هذا المعنى وقوته بالبداهة

كل مرتبة من مراتب الوجود تستتبع بالضرورة من الصفات الوجودية ما هو كمال لتلك المرتبة في المعني السابق ذكره وإلا كان الوجود لمرتبة سواها وقد فرض لها ما يتجلى للنفس من مثل الوجود لا ينحصر وأكمل مثال في أي مراتبه ما كان مقرونا بالنظام والكون على وجه ليس فيه خلل ولا تشويش فان كان ذلك النظام بحيث يستتبع وجودا مستمرا

وإن في النوع كان أدل على كمال المعني الوجودي في صاحب المثال فان تجلت للنفس مرتبة من مراتب الوجود على أن تكون مصدر الكل نظام كان ذلك عنوانا على أنها أكمل المراتب وأعلاها وأرفعها وأقواها

وجود الواجب هو مصدر كل وجود ممكن كما قلنا وظهر بالبرهان القاطع فهو بحكم ذلك أقوى الوجودات وأعلاها فهو يستتبع من الصفات الوجودية ما يلائم تلك المرتبة العليا وكل ما تصوره العقل كمالا في الوجود من حيث ما يحيط به من معني الثبات والاستقرار والظهور وأمكن أن يكون له وجب أن يثبت له وكونه مصدر اللنظام وتصريف الاعمال على وجه لا اضطراب فيه يعد من كمال الوجود كما ذكرنا فيجب أن يكون ذلك ثابتا له فالوجود الواجب يستتبع من الصفات الوجودية التي تقتضيها هذه المرتبة ما يمكن أن يكون له

فمما يجب أن يكون له صفة الحياة وهي صفة تستتبع العلم والارادة وذلك أن الحياة مما يعتبر كمالا للوجود بداهة فان الحياة مع ما يتبعها مصدر النظام وناموس الحكمة وهي في اى مراتبها مبدأ الظهور والاستقرار فى تلك المرتبة فهى كمال وجودى و يمكن أن يتصف بها الواجب وكل كمال وجودي يمكن أن يتصف به وجب أن يثبت له فواجب الوجود حي وانه

باينت حياته حياة الممكنات فان ما هو كمال للوجود انما هو مبدأ العلم والارادة ولو لم تثبت له هذه الصفة لكان في الممكنات ما هو أكمل منه وجودا وقد تقدم أنه أعلى الموجودات وأكملها فيه

والواجب هو واهب الوجود وما يتبعه فكيف لو كان فاقدا للحياة يعطيها فالحياة له كما أنه مصدرها

العلم

ومما يجب له صفة العلم ويراد به ما به انكشاف شيء عند من ثبتت له تلك الصفة أي مصدر ذلك الانكشاف منه لان العلم من الصفات الوجودية التي تعد كمالا في الوجود ويمكن أن تكون للواجب وكل ما كان كذلك وجب أن يثبت له فواجب الوجود عالم

ثم البداهة قاضية بأن العلم كمال في الموجودات الممكنة ومن الممكنات من هو عالم فلو لم يكن الواجب عالما لكان في الموجودات الممكنة ما هو أكمل من الموجود الواجب وهو محال كما قدمنا ثم هو واهب العلم في عالم الامكان ولا يعقل أن مصدر العلم يفقده

علم الواجب من لوازم وجوده كما ترى فيعلو علمه على العلوم علو وجوده عن الوجودات فلا يتصور في العلوم ما هو أعلى منه فيكون محيطا بكل ما يمكن علمه وإلا تصور العقل علما أشمل وهو انما يكون لوجود أكمل وهو محال

ما هو لازم لوجود الواجب يفنى بفنائه ويبقى ببقائه وعلم الواجب من لوازم وجوده فلا يفتقر الى شيء ما وراء ذاته فهو أزلي أبدي غني عن الآلات وجولات الفكر وأفاعيل النظر فيخالف علوم الممكنات بالضرورة ما يوجد من الممكنات فهو موافق لما انكشف بذلك العلم والا لم يكن علما

من أدلة ثبوت العلم للواجب ما نشاهده في نظام الممكنات من الاحكام والاتقان ووضع كل شيء في موضعه وقرن كل ممكن بما يحتاج اليه في وجوده وبقائه وذلك ظاهر لجلي النظر بما يشاهد في الاعيان كبيرها وصغيرها علويها وسفليها فهذه الروابط بين الكواكب والنسب الثابتة بينها وتقدير حركاتها على قاعدة تكفل لها البقاء على الوضع الذى قدر لها وإلزام كل كوكب بمدار لو خرج منه لاختل نظام عالمه أو العالم بأسره وغير ذلك مما فصل في علوم الهيئة الفلكية كل ذلك يشهد بعلم صانعه وحكمة مدبره

اعتبر بما تراه في جزئيات النباتات والحيوانات من توفيتها قواها وإيتائها ما تحتاج اليه في تقويم وجودها من الآلات والاعضاء ووضع ذلك في مواضعه من أبدانها وايداع غير الحساس منها كالنبات قوة الميل الى تناول ما يناسبه من الغذاء دون ما لا يلائمه فترى بزرة الحنظل تدفن بجوار

حبة البطيخ في أرض واحدة ثم تسقى بماء واحد وتنمى بعناية واحدة ولكن تلك تمتص من المواد ما يغذى المر الزعاق وهذه تتناول ما يغذو حلو المذاق وإرشاد الحساس منها الى استعمال ما منح من تلك الادوات والاعضاء وسوق كل قوة من قواه الى ما قدرت له فهو الذي يعلم حالة الجنين وهو نطفة أو علقة ويعلم حاجته متى تكامل خلقه وأنشأه نشأة الحي المستقل فى عمله الى الايدي والارجل والاعين والمشام والآذان وبقية المشاعر الباطنة ليستعمل ذلك فيما يقيم وجوده ويقيه من العوادى عليه وحاجته الى المعدة والقلب والكبد والرئة ونحوها من الاعضاء التي لا غني عنها في النمو والبقاء الى الاجل المحدود للشخص أو للنوع هو الذي يعلم حالة الجروة من الكلاب مثلا وأنها متي كبرت تلد أجراء متعددة فيمنحها أطباء متكاثرة وغير ذلك مما لا يستطاع احصاؤه وقد فصل الكثير منه فى كتب النباتات وحياة الحيوان وما يسمي التاريخ الطبيعي وفنون منافع الاعضاء والطب وما يتبعه على أن الباحثين في كل ذلك بعد ما بذلوا من الجهد وما صرفوا من الهمم وما كشفوا من الاسرار لم يزالوا في أول البحث

هذا الصنيع الذى انما تتفاضل العقول فى فهم أسراره والوقوف على دقائق حكمه ألا يدل على أن مصدره هو العالم بكل شيء الذي أعطى كل

شيء خلقه ثم هدى هل يمكن لمجرد الاتفاق المسمى بالصدفة أن يكون ينبوعا لهذا النظام وواضعا لتلك القواعد التى يقوم عليها وجود الاكوان عظيمها وحقيرها كلا بل مبدع ذلك كله هو من لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الارض ولا في السماء وهو السميع العليم

الارادة

مما يجب لواجب الوجود الارادة وهى صفة تخصص فعل العالم بأحد وجوهه الممكنة بعد ما ثبت أن واهب وجود الممكنات هو الواجب وأنه عالم وأن ما يوجد من الممكن لا بد أن يكون على وفق علمه ثبت بالضرورة انه مريد لانه انما يفعل على حسب علمه ثم ان كل موجود فهو على قدر مخصوص وصفة معينة وله وقت ومكان محدودان وهذه وجوه قد خصصت له دون بقية الوجوه الممكنة وتخصيصها كان على وفق العلم بالضرورة ولا معنى للارادة الا هذا

أما ما يعرف من معنى الارادة وهو ما به يصح للفاعل أن ينفذ ما قصده وأن يرجع عنه فذلك محال فى جانب الواجب فان هذا المعني من الهموم الكونية والعزائم القابلة للفسخ وهي من توابع النقص فى العلم فتتغير على حسب تغير الحكم وتردد الفاعل بين البواعث على الفعل والترك

القدرة

ومما يجب له القدرة وهي صفة بها الايجاد والاعدام ولما كان الواجب هو مبدع الكائنات على مقتضي علمه وارادته فلا ريب يكون قادرا بالبداهة لان فعل العالم المريد فيما علم وأراد انما يكون بسلطة له على الفعل ولا معني للقدرة الا هذا السلطان

الاختيار

ثبوت هذه الصفات الثلاث يستلزم بالضرورة ثبوت الاختيار اذ لا معنى له الا إصدار الأثر بالقدرة على مقتضى العلم وعلى حكم الارادة فهو الفاعل المختار ليس من أفعاله ولا من تصرفه في خلقه مايصدر عنه بالعلية المحضة والاستلزام الوجودى بدون شعور ولا ارادة وليس من مصالح الكون ما يلزمه مراعاته لزوم تكليف بحيث لو لم يراعه لتوجه عليه النقد فيأتيه تنزها عن اللائمة تعالى عن ذلك علواً كبيرا ولكن نظام الكون ومصالحه العظمي انما تقررت له بحكم أنه أثر الوجود الواجب الذى هو أكمل الوجودات وأرفعها فالكمال في الكون انما هو تابع لكمال المكوّن وإتقان الابداع انما هو مظهر لسموّ مرتبة المبدع وبهذا الوجود البالغ أعلى غايات النظام تعلق العلم الشامل والارادة المطلقة فصدر ويصدر على هذا النمط الرفيع (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون)

وهذا هو معنى قولهم ان أفعاله لا تعلل بالاغراض ولكنها تتنزه عن العبث ويستحيل أن تخلو من الحكم وان خفي شيء من حكمتها عن أنظارنا

الوحدة

ومما يجب له صفة الوحدة ذاتا ووصفا ووجودا وفعلا أما الوحدة الذاتية فقد أثبتناها فيما تقدم بنفي التركيب في ذاته خارجا وعقلا وأما الوحدة في الصفة أي أنه لا يساويه في صفاته الثابتة له موجود فلما بينا من أن الصفة تابعة لمرتبة الوجود وليس في الموجودات ما يساوى واجب الوجود في مرتبة الوجود فلا يساويه فيما يتبع الوجود من الصفات وأما الوحدة في الوجود وفي الفعل ونعني بها التفرد بوجوب الوجود وما يتبعه من ايجاد الممكنات فهي ثابتة لانه لو تعدد واجب الوجود لكان لكل من الواجبين تعين يخالف تعين الآخر بالضرورة والا لم يتحصل معنى التعدد وكلما اختلفت التعينات اختلفت الصفات الثابتة للذوات المتعينة لان الصفة انما تتعين وتنال تحققها الخاص بها بتعين ما ثبتت له بالبداهة فيختلف العلم والارادة باختلاف الذوات الواجبة اذ يكون لكل واحدة منها علم وارادة يباينان علم الاخري وارادتها ويكون لكل واحدة علم وارادة يلائمان ذاتها وتعينها الخاص بها

هذا التخالف ذاتي لان علم الواجب وإرادته لازمان لذاته من ذاته لا

لامر خارج فلا سبيل الى التغير والتبدل فيهما كما سبق وقد قدمنا أن فعل الواجب انما يصدر عنه على حسب علمه وحكم ارادته فيكون فعل كل صادرا على حكم يخالف الآخر مخالفة ذاتية فلو تعدد الواجبون لتخالفت أفعالهم بتخالف علومهم واراداتهم وهو خلاف يستحيل معه الوفاق وكل واحد بمقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات له السلطة على الايجاد في عامة الممكنات فكل له التصرف في كل منها على حسب علمه وارادته ولا مرجح لنفاذ احدى القدرتين دون الاخرى فتتضارب أفعالهم حسب التضارب في علومهم واراداتهم فيفسد نظام الكون بل يستحيل أن يكون له نظام بل يستحيل وجود ممكن من الممكنات لان كل ممكن لا بد أن يتعلق به الايجاد على حسب العلوم والارادات المختلفة فيلزم أن يكون للشيء الواحد وجودات متعددة وهو محال فلو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا لكن الفساد ممتنع بالبداهة فهو جل شأنه واحد فى ذاته وصفاته لا شريك له فى وجوده ولا فى أفعاله

الصفات السمعية التي يجب الاعتقاد بها

ماقدمنا من الصفات التى يجب الاعتقاد بثبوتها لواجب الوجود هي ما أرشد اليه البرهان وجاءت الشريعة الاسلامية وما تقدمها من الشرائع المقدسة لتأييده والدعوة اليه بلسان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ولسان

من سبقه من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين

ومن الصفات ماجاء ذكره على لسان الشرع ولا يحيله العقل اذا حمل على مايليق بواجب الوجود ولكن لا يهتدي اليه النظر وحده ويجب الاعتقاد بأنه جل شأنه متصف بها اتباعا لما قرره الشرع وتصديقا لما أخبر به فمن تلك الصفات صفة الكلام فقد ورد أن الله كلم بعض أنبيائه ونطق القرآن بأنه كلام الله فمصدر الكلام المسموع عنه سبحانه لا بد أن يكون شأنا من شؤنه قديما بقدمه أما الكلام المسموع نفسه المعبر عن ذلك الوصف القديم فلا خلاف في حدوثه ولا في أنه خلق من خلقه وخصص بالاسناد اليه لاختياره له سبحانه في الدلالة على ما أراد إبلاغه لخلقه ولانه صادر عن محض قدرته ظاهرا وباطنا بحيث لا مدخل لوجود آخر فيه بوجه من الوجوه سوى أن من جاء على لسانه مظهر لصدوره والقول بخلاف ذلك مصادرة للبداهة وتجرؤ على مقام القدم بنسبة التغير والتبدل اليه فان الآيات التي يقرؤها القاري تحدث وتفنى بالبداهة كلما تليت

والقائل بقدم القرآن المقروء أشنع حالا وأضل اعتقادا من كل ملة جاء القرآن نفسه بتضليلها والدعوة الى مخالفتها وليس في القول بأن الله أوجد القرآن بدون دخل لكسب بشر في وجوده ماءس شرف نسبته

بل ذلك غاية ما دعا الدين الى اعتقاده فهو السنة وهو ما كان عليه النبي وأصحابه وكل ما خالفه فهو بدعة وضلالة

أما ما نقل الينا من ذلك الخلاف الذي فرق الامة وأحدث فيها الأحداث خصوصا في أوائل القرن الثالث من الهجرة وإباء بعض الائمة أن ينطق بأن القرآن مخلوق فقد كان منشؤه مجرد التحرج والمبالغة فى التأدب من بعضهم والا فيجل مقام مثل الامام ابن حنبل عن أن يعتقد أن القرآن المقروء قديم وهو يتلوه كل ليلة بلسانه ويكيفه بصوته

ومما ثبت له بالنقل صفة البصر وهى ما به تنكشف المبصرات وصفة السمع وهى ما به تنكشف المسموعات فهو السميع البصير لكن علينا أن نعتقد أن هذا الانكشاف ليس بآلة ولا جارحة ولا حدقة ولا باصرة

كلام فى الصفات اجمالا

أبتدئ الكلام فيما أقصد بذكر حديث إن لم يصح فكتاب الله بجملته وتفصيله يؤيد معناه وهو قوله صلى الله عليه وسلم تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا

اذا قدرنا عقل البشر قدره وجدنا غاية ما ينتهى اليه كماله انما هو الوصول الى معرفة عوارض بعض الكائنات التي تقع تحت الادراك الانساني حسا كان أو وجدانا أو تعقلا ثم التوصل بذلك الى معرفة مناشئها وتحصيل

كليات لانواعها والاحاطة ببعض القواعد لعروض مايعرض لهاأما الوصول الى كنه حقيقة ما فمما لاتبلغه قوته لان اكتناه المركبات انما هو باكتناه ما تركبت منه وذلك ينتهي الى البسيط الصرف وهو لا سبيل الى اكتناهه بالضرورة وغاية ما يمكن عرفانه منه هو عوارضه وآثاره خذ أظهر الاشياء وأجلاها كالضوء قرر الناظرون فيه له أحكاما كثيرة فصلوها فى علم خاص به ولكن لم يستطع ناظر أن يفهم ماهو ولا أن يكتنه معني الاضاءة نفسه وانما يعرف من ذلك مايعرفه كل بصير له عينان وعلى هذا القياس

ثم ان الله لم يجعل للانسان حاجة تدعو الى اكتناه شيء من الكائنات وانما حاجته الى معرفة العوارض والخواص ولذة عقله ان كان سليما انما هي تحقيق نسبة تلك الخواص الى مااختصت به وادراك القواعد التي قامت عليها تلك النسب فالاشتغال بالاكتناه إضاعة للوقت وصرف للقوة الى غير ما سيقت اليه

اشتغل الانسان بتحصيل العلم بأقرب الاشياء اليه وهي نفسه أراد أن يعرف بعض عوارضها وهل هى عرض أو جوهر هل هي قبل الجسم أو بعده هل هي فيه أو مجردة عنه كل هذه صفات لم يصل العقل الى اثبات شيء منها يمكن الاتفاق عليه وانما مبلغ جهده أنه عرف أنه موجود حي له

شعور وإرادة وكل ما أحاط به بعد ذلك من الحقائق الثابتة فهو راجع الي تلك العوارض التي وصل اليها بديهته أما كنه شيء من ذلك بل وكيفية اتصافه ببعض صفاته فهو مجهول عنده ولا يجد سبيلا للعلم به

هذا حال العقل الانساني مع ما يساويه في الوجود أو ينحط عنه بل وكذلك شأنه فيما يظن من الافعال أنه صادر عنه كالفكر وارتباطه بالحركة والنطق فما يكون من أمره بالنسبة الى ذلك الوجود الاعلى ماذا يكون اندهاشه بل انقطاعه اذا وجه نظره الي ما لا يتناهي من الوجود الازلي الابدي

النظر في الخلق يهدي بالضرورة الى المنافع الدنيوية ويضيء للنفس طريقها الى معرفة من هذه آثاره وعليها تجلت أنواره والي اتصافه بما لولاه لما صدرت عنه هذه الآثار على ماهي عليه من النظام وتخالف الانظار في الكون انما هو من تصارع الحق والباطل ولا بد أن يظفر الحق ويعلو على الباطل بتعاون الافكار أو صولة القوى منها على الضعيف

أما الفكر في ذات الخالق فهو طلب للاكتناه من جهة وهو ممتنع على العقل البشري لما علمت من انقطاع النسبة بين الوجودين ولاستحالة التركب في ذاته وتطاول الى ما لا تبلغه القوة البشرية من جهة أخري فهو عبث ومهلكة عبث لانه سعي الى ما لا يدرك ومهلكة لانه يؤدي الى الخبط في الاعتقاد لانه تحديد لما لا يجوز تحديده وحصر لما لا يصح حصره

لا ريب ان هذا الحديث وما أتينا عليه من البيان كما يأتي في الذات من حيث هي يأتي فيها مع صفاتها فالنهي واستحالة الوصول الى الاكتناه شاملان لها فيكفينا من العلم بها ان نعلم أنه متصف بها اما ماوراء ذلك فهو مما يستأثر هو بعلمه ولا يمكن لعقولنا أن تصل اليه ولهذا لم يأت الكتاب العزيز وما سبقه من الكتب الا بتوجيه النظر الى المصنوع لينفذ منه الى معرفة وجود الصانع وصفاته الكمالية أما كيفية الاتصاف فليس من شأننا أن نبحث فيه

فالذي يوجبه علينا الايمان هو أن نعلم انه موجود لا يشبه الكائنات أزلي أبدي حي عالم مريد قادر متفرد في وجوب وجوده وفي كمال صفاته وفي صنع خلقه وأنه متكلم سميع بصير وما يتبع ذلك من الصفات التي جاء الشرع باطلاق أسمائها عليه أما كون الصفات زائدة على الذات وكون الكلام صفة غير ما اشتمل عليه العلم من معاني الكتب السماوية وكون السمع والبصر غير العلم بالمسموعات والمبصرات ونحو ذلك من الشؤن التي اختلف عليها النظار وتفرقت فيها المذاهب فمما لا يجوز الخوض فيه اذ لا يمكن لعقول البشر أن تصل اليه والاستدلال على شيء منه بالالفاظ الواردة ضعف في العقل وتغرير بالشرع لان استعمال اللغة لا ينحصر في الحقيقة ولئن انحصر فيها فوضع اللغة لا تراعي فيه الوجودات

بكنهها الحقيقي وانما تلك مذاهب فلسفة إن لم يضل فيها أمثالهم فلم يهتد فيها فريق الى مقنع فما علينا الا الوقوف عند ما تبلغه عقولنا وان نسأل الله أن يغفر لمن آمن به وبما جاء به رسله ممن تقدمنا

أفعال الله جل شأنه

أفعال الله صادرة عن علمه وارادته كما سبق تقريره وكل ما صدر عن علم وارادة فهو عن الاختيار ولا شيء مما يصدر عن الاختيار بواجب على المختار لذاته فلا شيء من أفعاله بواجب الصدور عنه لذاته بجميع صفات الافعال من خلق ورزق وإعطاء ومنع وتعذيب وتنعيم مما يثبت له تعالى بالامكان الخاص فلا يطوفن بعقل عاقل بعد تسليم أنه فاعل عن علم وارادة أن يتوهم أن شيأ من أفعاله واجب عنه لذاته كما هو الشأن في لوازم الماهيات أو في اتصاف الواجب بصفاته مثلا فان ذلك هو التناقض البديهي الاستحالة كما سبق الاشارة اليه

بقيت علينا جولة نظر في تلك المقالات الحمقى التي اختبط فيها القوم اختباط اخوة تفرقت بهم الطرق في السير الى مقصد واحد حتى اذا التقوا في غسق الليل صاح كل فريق بالآخر صيحة المستخبر فظن كل ان الآخر عدو يريد مقارعته على ما بيده فاستحر بينهم القتال ولا زالوا يتجالدون حتى تساقط جلهم دون المطلب ولما اسفر الصبح وتعارفت الوجوه رجع

الرشد الى من بقي وهم الناجون ولو تعارفوا من قبل لتعاونوا جميعا على بلوغ ما أملوا ولو افتهم الغاية اخوانا بنور الحق مهتدين نريد تلك المقالات المضطربة في انه يجب على الله رعاية المصلحة في افعاله وتحقيق وعيده فيمن تعدى حدوده من عبيده وما يتلو ذلك من وقوع اعماله تحت العلل والاغراض فقد بالغ قوم فى الايجاب حتى ظن الناظر في مزاعمهم انهم عدوه واحدا من المكلفين يفرض عليه ان يجهد للقيام بما عليه من الحقوق وتأدية ما لزمه من الواجبات تعالى عن ذلك علوا كبيرا وغلا آخرون في نفي التعليل عن افعاله حتى خيل للممعن فى مقالاتهم انهم لا يرضونه إلا قلبا يبرم اليوم ما نقضه بالامس ويفعل غدا ما اخبر بنقيضه اليوم اوغاولا لا يشعر بما يستتبعه عمله سبحان ربك رب العزة عما يصفون وهو احكم الحاكمين واصدق القائلين جبروت الله وطهارة دينه اعلى وارفع من هذا كله

اتفق الجميع على ان افعاله تعالى لا تخلو من حكمة وصرح الغلاة والمقصرون جميعا بأنه تعالى منزه عن العبث في أفعاله والكذب في أقواله ثم بعد هذا أخذوا يتنابذون بالالفاظ ويتمارون في الاوضاع ولا يدري الى أي غاية يقصدون فلنأخذ ما اتفقوا عليه ولنرد الى حقيقة واحدة ما اختلفوا فيه

حكمة كل عمل مايترتب عليه مما يحفظ نظاما أو يدفع فسادا خاصا كان أو عاما لو كشف للعقل من أي وجه لعقله وحكم بأن العمل لم يكن عبثا ولعبا ومن يزعم للحكمة معنى لا يرجع الى هذا حاكمناه الى أوضاع اللغة وبداهة العقل لا يسمى مايترتب على العمل حكمة ولا يتمثل عند العقل مثالها الا اذا كان ما يتبع العمل مراد الفاعله بالفعل والا لعد النائم حكيما فيما لو صدرت عنه حركة في نومه قتلت عقربا كاد يلسع طفلا أو دفعت صبيا عن حفرة كاد يسقط فيها بل لوسم بالحكمة كثيرا من العجماوات اذا استتبعت حركاتها بعض المنافع الخاصة أو العامة والبداهة تأباه من القواعد الصحيحة المسلمة عند جميع العقلاء «أن أفعال العاقل تصان عن العبث» ولا يريدون من العاقل الا العالم بما يصدر عنه بارادته ويريدون من صونها عن العبث أنها لا تصدر الا لامر يترتب عليها يكون غاية لها وان كان هذا في العاقل الحادث فما ظنك بمصدر كل عقل ومنتهى الكمال في العلم والحكم هذه كلها مسلمات لا ينازع فيها أحد

صنع الله الذي أتقن كل شيء وأحسن خلقه مشحون بضروب الحكم ففيه ماقامت به السموات والارض ومابينهما وحفظ به نظام الكون بأسره وما صانه عن الفساد الذي يفضي به الى العدم وفيه ما استقامت به مصلحة كل موجود على حدته خصوصا ماهو من الموجودات الحية

كالنبات والحيوان ولولا هذه البدائع من الحكم ما تيسر لنا الاستدلال على علمه

فهذه الحكم التي نعرفها الآن بوضع كل شيء في موضعه وإيتاء كل محتاج ماله إليه الحاجة إما أن تكون معلومة له مرادة مع الفعل أم لا لا يمكن القول بالثاني والا لكان قولا بقصور العلم إن لم تكن معلومة أو بالغفلة ان لم تكن مرادة وقد سبق تحقيق أن علمه وسع كل شيء واستحالة غيبة أثر من آثاره عن ارادته فهو يريد الفعل ويريد ما يترتب عليه من الحكمة ولا معنى لهذا الا إرادته للحكمة من حيث هي تابعة للفعل ومن المحال أن تكون الحكمة غير مرادة بالفعل مع العلم بارتباطها به فيجب الاعتقاد بأن أفعاله يستحيل أن تكون خالية من الحكمة وأن الحكمة يستحيل أن تكون غير مرادة اذ لو صح توهم أن ما يترتب على الفعل غير مراد لم يعد ذلك من الحكمة كما سبق

فوجوب الحكمة في أفعاله تابع لوجوب الكمال في علمه وارادته وهو مما لا نزاع فيه بين جميع المتخالفين وهكذا يقال في وجوب تحقق ما وعد وأوعد به فانه تابع لكمال علمه وارادته وصدقه وهو أصدق القائلين وما جاء في الكتاب أو السنة مما قد يوهم خلاف ذلك يجب إرجاعه الى بقية الآيات وسائر الآثار حتى ينطبق الجميع على ما هدت اليه البديهيات

السابق ايرادها وعلى ما يليق بكمال الله وبالغ حكمته وجليل عظمته والاصل الذى يرجع اليه كل وارد في هذا الباب قوله تعالى وما خلقنا السماء والارض وما بينهما لاعبين لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون

وقوله لاتخذناه من لدنا أى لصدر عن ذاتنا المتفردة بالكمال المطلق الذى لا يشوبه نقص وهو محال وإن في قوله ان كنا فاعلين نافية وهو نتيجة القياس السابق

بقي أن الناظرين في هذه الحقائق ينقسمون الى قسمين فمنهم من يطلب علمها لانه شهوة العقل وفيه لذته فهذا القسم يسمى المعانى بأسمائها ولا يبالي جوز الشرع اطلاقها فى جانب الله أم لم يجوز فيسمي الحكمة غاية وغرضا وعلة غائية ورغبة للمصلحة وليس من رأيه أن يجعل لقلمه عنانا يرده عن اطلاق اسم متى صح عنده معناه وقد يعبر بالواجب عليه بدل الواجب له غير مبال بما يوهمه اللفظ

ومنهم من يطلب علمها مع مراعاة ان ذلك دين يتعبد به واعتقاد بشؤن لاله عظيم يعبد بالتحميد والتعظيم ويجب الاحتياط في تنزيهه حتى بعفة اللسان عن النطق بما يوهم نقصا في جانبه فيتبرأ من تلك الالفاظ مفردها

ومركبها فان الوجوب عليه يوهم التكليف والالزام وبعبارة أخري يوهم القهر والتأثر بالاغيار ورعاية المصلحة توهم إعمال النظر وإجالة الفكر وهما من لوازم النقص في العلم والغاية والعلة الغائية والغرض توهم حركة في نفس الفاعل من قبل البدء فى العمل الى نهايته وفيهامافى سوابقها ولكن الله أكبر هل يصح أن تكون سعة المجال أو التعفف فى المقال سببافي التفرقة بين المؤمنين وتماريهم فى الجدال حتى ينتهي بهم التفرق الى ماصاروا اليه من سوء الحال

أفعال العباد

كما يشهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود ولا يحتاج فى ذلك الى دليل يهديه ولا معلم يرشده كذلك يشهد أنه مدرك لاعماله الاختيارية يزن نتائجها بعقله ويقدرها بارادته ثم يصدرها بقدرة مافيه ويعد انكار شيء من ذلك مساويا لانكار وجوده في مجافاته لبداهة العقل

كما يشهد بذلك في نفسه يشهده أيضا في بني نوعه كافة متى كانوا مثله فى سلامة العقل والحواس ومع ذلك فقد يريد إرضاء خليل فيغضبه وقد يطلب كسب رزق فيفوته وربما سعى الى منجاة فسقط في مهلكة فيعود باللائمة على نفسه ان كان لم يحكم النظر فى تقدير فعله ويتخذ من خيبته أول مرة مرشدا له فى الاخرى فيعاود العمل من طريق أقوم وبوسائل

أحكم ويتقد غيظه على من حال بينه وبين ما يشتهي إن كان سبب الاخفاق في المسعى منازعة منافس له في مطلبه لوجدانه من نفسه أنه الفاعل في حرمانه فينبرى لمناضلته وتارة يتجه الى أمر أسمى من ذلك إن لم يكن لتقصيره أو لمنافسة غيره دخل فيما لقى من مصير عمله كأن هب ريح فأغرق بضاعته أو نزل صاعق فأحرق ماشيته أو علق أمله بمعين فمات أو بذي منصب فعزل يتجه من ذلك الى أن في الكون قوة أسمى من أن تحيط بها قدرته وأن وراء تدبيره سلطانا لا تصل اليه سلطته فان كان قد هداه البرهان وتقويم الدليل الى أن حوادث الكون بأسره مستندة الى واجب وجود واحد يصرفه على مقتضى علمه وارادته خشع وخضع ورد الامر اليه فيما لقى ولكن مع ذلك لا ينسى نصيبه فيما بقى فالمؤمن كما يشهد بالدليل وبالعيان أن قدرة مكون الكائنات أسمي من قوى الممكنات يشهد بالبداهة أنه في أعماله الاختيارية عقلية كانت أو جسمانية قائم بتصريف ما وهب الله له من المدارك والقوى فيما خلقت لاجله وقد عرف القوم شكر الله على نعمه فقالوا هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه الى ما خلق لاجله

على هذا قامت الشرائع وبه استقامت التكاليف ومن أنكر شيأ منه فقد أنكر مكان الايمان من نفسه وهو عقله الذى شرفه الله بالخطاب

في أوامره ونواهيه

أما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من احاطة علم الله وارادته وبين ما تشهد به البداهة من عمل المختار فيما وقع عليه الاختيار فهو من طلب سر القدر الذى نهينا عن الخوض فيه واشتغال بما لا تكاد تصل العقول اليه وقد خاض فيه الغالون من كل ملة خصوصا من المسيحيين والمسلمين ثم لم يزالوا بعد طول الجدال وقوفا حيث ابتدؤا وغاية ما فعلوا أن فرقوا وشتتوا فمنهم القائل بسلطة العبد على جميع أفعاله واستقلالها المطلق وهو غرور ظاهر ومنهم من قال بالجبر وصرح به ومنهم من قال به وتبرأ من اسمه وهو هدم للشريعة ومحو للتكاليف وابطال لحكم العقل البديهى وهو عماد الايمان

ودعوى أن الاعتقاد بكسب العبد لافعاله يؤدى الى الاشراك بالله وهو الظلم العظيم دعوى من لم يلتفت الى معنى الاشراك على ما جاء به الكتاب والسنة فالاشراك اعتقاد أن لغير الله أثرا فوق ما وهبه الله من الاسباب الظاهرة وأن لشيء من الاشياء سلطانا على ما خرج عن قدرة المخلوقين وهو اعتقاد من يعظم سوى الله مستعينا به فيما لا يقدر العبد عليه كالاستنصار في الحرب بغير قوة الجيوش والاستشفاء من الامراض بغير الادوية التى هدانا الله اليها والاستعانة على السعادة الاخروية أو الدنيوية بغير الطرق

والسنن التي شرعها الله لنا هذا هو الشرك الذي كان عليه الوثنيون ومن ماثلهم فجاءت الشريعة الاسلامية بمحوه ورد الامر فيما فوق القدرة البشرية والاسباب الكونية الى الله وحده وتقرير أمرين عظيمين هما ركنا السعادة وقوام الاعمال البشرية الاول أن العبد يكسب بارادته وقدرته ما هو وسيلة لسعادته والثاني أن قدرة الله هي مرجع لجميع الكائنات وأن من آثارها ما يحول بين العبد وبين انفاذ ما يريده وأن لا شئ سوى الله يمكن له أن يمد العبد بالمعونة فيما لم يبلغه كسبه جاءت الشريعة لتقرير ذلك وتحريم أن يستعين العبد بأحد غير خالقه فى توفيقه الى إتمام عمله بعد إحكام البصيرة فيه وتكليفه بأن يرفع همته الى استمداد العون منه وحده بعد أن يكون قد أفرغ ما عنده من الجهد فى تصحيح الفكر وإجادة العمل ولا يسمح العقل ولا الدين لاحد أن يذهب الى غير ذلك وهذا الذى قررناه قد اهتدى اليه سلف الامة فقاموا من الاعمال بما عجبت له الامم وعول عليه من متأخري أهل النظر امام الحرمين الجوينى رحمه الله وان أنكر عليه بعض من لم يفهمه

أكرر القول بأن الايمان بوحدانية الله لا يقتضى من المكلف الا اعتقاد أن الله صرفه في قواه فهو كاسب لايمانه ولما كلفه الله به من بقية الاعمال واعتقاد أن قدرة الله فوق قدرته ولها وحدها السلطان الاعلى في اتمام

مراد العبد بازالة الموانع أو تهيئة الاسباب المتممة مما لا يعلمه ولا يدخل تحت ارادته

أما التطلع الى ما هو أغمض من ذلك فليس من مقتضى الايمان كما بينا وانما هو من شره العقول في طلب رفع الاستار عن الاسرار ولا أنكر أن قوما قد وصلوا بقوة العلم والمثابرة على مجاهدة المدارك الى ما اطمأنت به نفوسهم وتقشعت به حيرتهم ولكن قليل ما هم على أن ذلك نور يقذفه الله في قلب من شاء ويخص به أهل الولاية والصفاء وكثر ما ضل قوم وأضلوا وكان لمقالاتهم أسوأ الاثر فيما عليه حال الامة اليوم

لو شئت لقربت البعيد فقلت إن من بالغ الحكم في الكون أن تتنوع الانواع على ما هي عليه في العيان ولا يكون النوع ممتازا عن غيره حتى تلزمه خواصه وكذا الحال في تميز الاشخاص فواهب الوجود يهب الانواع والاشخاص وجودها على ما هى عليه ثم كل وجود متى حصل كانت له توابعه ومن تلك الانواع الانسان ومن مميزاته حتى يكون غير سائر الحيوانات أن يكون مفكرا مختارا في عمله على مقتضى فكره فوجوده الموهوب مستتبع لمميزاته هذه ولو سلب شيء منها لكان إما ملكا أو حيوانا آخر والفرض أنه الانسان فهبة الوجود له لا شيء فيها من القهر على العمل ثم علم الواجب محيط بما يقع من الانسان بارادته وبان عمل كذا يصدر

في وقت كذا وهو خير يثاب عليه وأن عملا آخر شر يعاقب عليه عقاب الشر والاعمال في جميع الاحوال حاصلة عن الكسب والاختيار فلا شيء في العلم بسالب للتخيير في الكسب وكون ما في العلم يقع لا محالة انما جاء من حيث هو الواقع والواقع لا يتبدل

ولنا في علومنا الكونية أقرب الامثال شخص من أهل العناد يعلم علم اليقين أن عصيانه لاميره باختياره يحل به عقوبته لا محالة لكنه مع ذلك يعمل العمل ويستقبل العقوبة وليس لشيء من علمه وانطباقه على الواقع أدنى أثر في اختياره لا بالمنع ولا بالالزام فانكشاف الواقع للعالم لا يصح في نظر العقل ملزما ولا مانعا وانما يربك الوهم تغيير العبارات وتشعب الالفاظ ولو شئت لزدت في بيان ذلك ورجوت أن لا يبعد عن عقل ألف النظر الصحيح ولم تفسد فطرته بالمماحكات اللفظية لكن يمنعني عن الاطالة فيه عدم الحاجة اليه في صحة الايمان وتقاصر عقول العامة عن ادراك الامر في ذاته مهما بالغ المعبر في الايضاح عنه والتياث قلوب الجمهور من الخاصة بمرض التقليد فهم يعتقدون الامر ثم يطلبون الدليل عليه ولا يريدونه الا موافقا لما يعتقدون فان جاءهم بما يخالف ما اعتقدوا نبذوه ولجوا في مقاومته وان أدى ذلك الى جحد العقل برمته فأكثرهم يعتقد فيستدل وقلما تجد بينهم من يستدل ليعتقد فان صاح بهم صائح من

أعماق سرائرهم ويل للخابط ذلك قاب اسنة الله فى خلقه وتحريف لهديه فى شرعه عرتهم هزة من الجزع ثم عادوا الى السكون محتجين بان هذا هو المألوف وما أقنا الاعلى معروف ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

حسن الافعال وقبحها

الافعال الانسانية الاختيارية لاتخرج عن أن تكون من الاكوان الواقعة تحت مداركنا وماتنفعل به نفوسنا عند الاحساس بها أو استحضار صورها يشابه كل المشابهة ماتنفعل به عند وقوع بعض الكائنات تحت حواسنا أو حضورها في مخيلاتنا وذلك بديهى لا يحتاج الى دليل

نجد في أنفسنا بالضرورة تمييزا بين الجميل من الاشياء والقبيح منها فان اختلفت مشارب الرجال في فهم جمال النساء أو مشارب النساء في معنى جمال الرجال فلم يختلف أحد في جمال ألوان الازهار وتنضيد أوراق النباتات والاشجار خصوصا اذا كانت أوضاع الزهر على أشكال تمثل الائتلاف والتناسب بين تلك الالوان بعضها مع بعض ولا في قبح الصورة الممثل بها بتهشيم بعض أجزائها وانقطاع البعض الآخر على غير نظام وانفعال أنفسنا من الجميل بهجة أو اعجاب ومن القبيح اشمئزازا أو جزع وكما يقع هذا التمييز في المبصرات يقع في غيرها من المسموعات والملموسات

والمذوقات والمشمومات كما هو معروف لكل حساس من بني آدم باحدى تلك الحواس

ليس هذا موضع تحديد ماهو الجمال وما هو القبح في الاشياء ولكن لا يخالفنا أحد في أن من خواص الانسان بل وبعض الحيوان التمييز بينهما وعلى هذا التمييز قامت الصناعات على اختلاف أنواعها وبه ارتقى العمران في أطواره الى الحد الذى نراه عليه الآن وان اختلفت الاذواق ففى الاشياء جمال وقبح

هذا في المحسوسات واضح كما سبق ولعله لا ينزل عن تلك الدرجة في الوضوح مايلم به العقل من الموجودات المعقولة وان اختلف اعتبار الجمال فيها فالكمال في المعقولات كالوجود الواجب والارواح اللطيفة وصفات النفوس البشرية له جمال تشعر به أنفس عارفيه وتبهر له بصائر لاحظيه وللنقص قبح لا تنكره المدارك العالية وان اختلف أثر الشعور ببعض أطواره في الوجدان عن أثر الاحساس بالقبيح في المحسوسات وهل في الناس من ينكر قبح النقص في العقل والسقوط في الهمة وضعف العزيمة ويكفي أن أرباب هذه النقائص المعنوية يجاهدون فى إخفائها ويفخرون أحيانا بانهم متصفون باضدادها

وقد يجمل القبيح بجمال أثره ويقبح الجميل بقبح مايقترن به فالمر قبيح

مستبشع والملك الدميم المشوه الخلقة ينبو عنه النظر لكن أثر المرفي معالجة المرض وعدل الدميم فى رعيته أو إحسانه اليك فى خاصة نفسك يغير من حالتك النفسية عند حضور صورته فان جمال الاثر يلقي على صاحبه أشعة من بهائه فلا يشعر الوجدان منه الا بالجميل ومثل ذلك يقال فى قبح الحلو اذا أضر واشمئزاز النفس من الجميل اذا ظلم وأصر

هل يمكن لعاقل أن لا يقول فى الافعال الاختيارية كما قال في الموجودات الكونية مع أنها نوع منها وتقع تحت حواسنا ومداركنا العقلية إما بنفسها وإما بأثرها وتنفعل نفوسنا بما يلم بها منها كما تنفعل بما يرد عليها من صور الكائنات كلا بل هي قسم من الموجودات حكمها فى ذلك حكم سائرها بالبداهة

فمن الافعال الاختيارية ماهو معجب فى نفسه تجد النفس منه ما تجد من جمال الخلق كالحركات العسكرية المنتظمة وتقلب المهرة من اللاعبين في الألاعيب المعروفة اليوم «بالجمناستيك» وكايقاع النغمات على القوانين الموسيقية من العارف بها ومنها ماهو قبيح فى نفسه يحس منه ما يحس من رؤية الخلق المشوه كتخبط ضعفاء النفوس عند الجزع وكولولة النائحات ونقع المذعورين

ومنها ماهو قبيح لما يعقبه من الالم وماهو حسن لما يجلب من اللذة أو

دفع الالم فالاول كالضرب والجرح وكل مايؤلم من أفعال الانسان والثاني كالاكل على جوع والشرب على عطش وكل مايحصل لذة أو يدفع ألما مما لايحصي عده وفي هذا القسم يكون الحسن بمعنى مايلذ والقبيح بمعنى المؤلم

وقلما يختلف تمييز الانسان للحسن والقبيح من الافعال بالمعنيين السابقين عن تمييز الحيوانات المرتقية في سلسلة الوجود اللهم الا في قوة الوجدان وتحديد مرتبة الجمال والقبح

ومن الافعال الاختيارية مايحسن باعتبار مايجلب من النفع وما يقبح بمايجر اليه من الضرر ويختص الانسان بالتمييز بين الحسن والقبيح بهذا المعنى اذا أخذ من أكمل وجهاته وقلما يشاركه فيه حيوان آخر اللهم إلا من أحط جهاته وهو خاصة العقل وسر الحكمة الالهية في هبة الفكر

فمن اللذيذ مايقبح لشؤم عاقبته كالافراط في تناول الطعام والشراب والانقطاع الى سماع الاغاني والجرى في أعقاب الشهوات فان ذلك مفسدة للصحة مضيعة للعقل متلفة للمال مدعاة للعجز والذل وانما قبح اللذيذ في هذا الموضع لقصر مدته وطول مدة مايجر اليه عادة من الآلام التي قد لاتنتهي الا بالموت على أسوإ حالاته ولضعف النسبة بين متاع

اللذة ومقاساة شدائد الالم ومن المؤلم مايحسن كتجشم مشاق التعب فى الاعمال لكسب الرزق وتأمين النفس على حاجاتها في أوقات الضعف ومجاهدة الشهوات ومقاساة الحرمان من بعض اللذات حينا من الزمن ليتوفر للقوي البدنية والعقلية حظها من التمتع بما قدر لها من اللذائذ على وجه ثابت لايخالطه اضطراب أو على نمط يخفف من رزايا الحياة إن عدت الحياة مثارا لها

ومن المؤلم الذى عده العقل البشرى حسنا مقارعة الانسان عدوه سواء كان من نوعه أو من غيره للمدافعة عن نفسه أو عن أثماره ومنهم بنو أبيه أو قبيلته أو شعبه أو أمته حسب ارتقائه في الاحساس ومخاطرته حتى بحياته فى سبيل ذلك كأنه يرى فى بذل هذه الحياة أمنا على حياة أخرى تشعر بها نفسه وان لم يحددها عقله ومنه معاناة التعب في كشف ماعمي عن علمه من حقائق الكون كأنه لا يرى المشقة في ذلك شيأ بالقياس الى مايحصل من لذة الاطمئنان على الحق بقدر ماله من الاستطاعة

وعد من اللذيذ المستقبح مد اليد الى ما كسبه الغير بسعيه واستشفاء ألم الحقد باتلاف نفس المحقود عليه أو ماله لما في ذلك من جلب المخافة العامة حتى على ذات المتعدي ويمكنك من نفسك استحضار مايتبع الوفاء بالعهود والعقود والغدر فيها

كل هذا عرفه العقل البشري وفرق فيه بين الضار والنافع وسمى الاول فعل الشر والثاني عمل الخير وهذا التفريق هو منبت التمييز بين الفضيلة والرذيلة وقد حددهما النظر الفكرى على تفاوت في الاجمال والتفصيل للتفاوت فى درجات عقول الناظرين وناط بهما سعادة الانسان وشقاءه في هذه الحياة كما ربط بهما نظام العمران البشرى وفساده وعزة الامم وذلتها وضعفها وقوتها وان كان المحددون لذلك والآخذون فيه بحظ من الصواب هم العدد القليل من عقلاء البشر

كل هذا من الاوليات العقلية لم يختلف فيه ملي ولا فيلسوف فللاعمال الاختيارية حسن وقبح في نفسها أو باعتبار أثرها في الخاصة أو فى العامة والحس أو العقل قادر على تمييز ما حسن منها وما قبح بالمعاني السابقة بدون توقف على سمع والشاهد على ذلك ما نراه في بعض أصناف الحيوان وما نشهده فى أفاعيل الصبيان قبل تعقل ما معنى الشرع وما وصل الينا من تاريخ الانسان وما عرف عنه في جاهليته

ومما يحسن ذكره هنا ما شاهده بعض الناظرين فى أحوال النمل قال كانت جماعة من النمل تشتغل فى بيت لها فجاءت نملة كأنها القائمة بمراقبة العمل فرأت المشتغلات قد وضعت السقف على أقل من الارتفاع المناسب فأمرت بهدمه فهدم ورفع البنيان الى الحد الموافق ووضع السقف

على أرفع مما كان وذلك من أنقاض السقف القديم وهذا هو التمييز بين الضار والنافع فمن زعم أن لا حسن ولا قبح في الاعمال على الاطلاق فقد سلب نفسه العقل بل عدها أشد حمقا من النمل

سبق لنا أن واجب الوجود وصفاته الكمالية تعرف بالعقل فاذا وصل مستدل ببرهانه الى اثبات الواجب وصفاته الغير السمعية ولم تبلغه بذلك رسالة كما حصل لبعض أقوام من البشر ثم انتقل من النظر في ذلك وفي أطوار نفسه الى أن مبدأ العقل فى الانسان يبقى بعد موته كما وقع لقوم آخرين ثم انتقل من هذا مخطئا أو مصيبا الى أن بقاء النفس البشرية بعد الموت يستدعى سعادة لها فيه أو شقاء ثم قال ان سعادتها إنما تكون بمعرفة الله وبالفضائل وانها إنما تسقط فى الشقاء بالجهل بالله وبارتكاب الرذائل وبنى على ذلك أن من الاعمال ماهو نافع للنفس بعد الموت بتحصيل السعادة ومنها ماهو ضار لها بعده بايقاعها فى الشقاء فأى مانع عقلي أو شرعى يحظر عليه أن يقول بعد ذلك بحكم عقله إن معرفة الله واجبة وان جميع الفضائل وما يتبعها من الاعمال مفروضة وان الرذائل وما يكون عنها محظورة وأن يضع لذلك ما يشاء من القوانين ليدعو بقية البشر الى الاعتقاد بمثل ما يعتقد والي أن يأخذ من الاعمال بمثل ما أخذ به حيث لم يوجد شرع يعارضه

أما أن يكون ذلك حالا لعامة الناس يسلمون بعقولهم أن معرفة الله واجبة وأن الفضائل مناط السعادة فى الحياة الاخرى والرذائل مدار الشقاء فيها فمما لا يستطيع عاقل أن يقول به والمشهود من حال الامم كافة يضال القائل به فى رأيه

لو كانت حاجات الانسان ومخاوفه محدودة كما هي حاجات فيل أو أسد مثلا وكان ما وهب له من الفكر واقفا عند حد ما إليه الحاجة لاهتدي الى المنافع وإتقاء المضار على وجه لا يختلف فيه أفراده ولسعدت حياته وتخلص كل من شر الآخر ونجا بقية الحيوانات من غائلة الجميع

لكن قضى عليه حكم نوعه بأن لا يكون لحاجته حد ولا تختص معيشته بجو من الاجواء ولا بوضع من الاوضاع وأن يوهب من القوى المدركة ما يكفيه استعماله فى سد عوزه وتوفير لذاته في أى إقليم وعلى أى حال وأن يختلف ظهور هذه المدارك في أطوارها وآثارها باختلاف أصنافه وشعوبه وأشخاصه اختلافا لا تتناهى درجاته ولولا هذا لما اختلف عن بقية الحيوانات الا باستقامة القامة وعرض الاظفار

وهب الله الانسان أو سلط عليه ثلاث قوى لم يساوه فيها حيوان الذاكرة والمخيلة والمفكرة فالمذكرة تثير من صور الماضى ما ستره الاشتغال بالحاضر فتستحضر من صور المرغوبات والمكروهات ما تنبه اليه الاشباه

أو الاضداد الحاضرة فقد يذكر الشيء بشبهه وقد يذكره بضده كما هو بديهي والخيال يجسم من المذكور وما يحيط به من الاحوال حتى يصير كأنه شاهد ثم ينشيء له مثال لذة أو ألم في المستقبل يحاكي ماذهب به الماضي ويهمز للنفس في طلبه أو الهرب منه فتلجأ الى الفكر في تدبير الوسيلة اليه

على هذه القوى الثلاث مستوى سعادة الانسان ومنها ينبوع بلائه

فمن الناس معتدل الذكر هادىء الخيال صحيح الفكر ينظر مثلا في حال مسرف أنفق ماله في غير نافع وضاقت يده عما يقيم معيشته فيذكر ألما لحاجة مضت ثم يتخيل المال ومنافعه وما تتمتع به النفس من اللذة به سواء في سد حاجاته أو في دفع الالم الذي يحدثه مشهد الفاقة في غيره باعطاء المضطر مايذهب بضرورته ثم يتخيل ذلك المال آتيا من وجوهه التي لا يتعلق بها حق من حقوق غيره وعند ذلك يوجه فكره لطلب الوسيلة اليه من تلك الوجوه بالعمل القويم في استخدام ماوهبه الله من القوى في نفسه وما سخره له من قوى الكون المحيط به

ومن الناس منحرف عن سنن الاعتدال يرى مالا مثلا في يد غيره فيتذكر لذة ماضية أصابها بمثل هذا المال ويعظم له الخيال لذة مثلها في المستقبل ولا يزال يعظم في تلك اللذة والتمتع بها حتى يقع ظل الخيال على طريق

الفكر فيستتر عنه ماطاب من وجوه الكسب وانما يعمد الى استعمال قوته أوحيلته في سلب المال من يد مالكه لينفقه فيما تخيل من المنفعة فيكون قد عطل بذلك قواه الموهوبة له وأخل بالامن الذي أفاضه الله بين عباده وسن سنة الاعتداء فلا يسهل عليه ولا على غيره الوصول الى الراحة من أعمال المقترفين لمثل عمله وخفيف من النظر في أعمال البشر يجليها جميعها على نحو مابينا في المثالين فلقوة الذاكرة وضعفها وحدة الخيال واعتداله واعوجاج الفكر واستقامته أعظم أثر في التمييز بين النافع والضار في أشخاص الاعمال وللامزجة والأجواء وما يحتف بالشخص من أهل وعشيرة ومعاشرين مدخل عظيم في التخيل والفكر بل وفي الذكر

فالناس متفقون على أن من الاعمال ماهو نافع ومنها ماهو ضار وبعبارة أخرى منها ماهو حسن ومنها ماهو قبيح ومن عقلائهم وأهل النظر الصحيح والمزاج المعتدل منهم من يمكنه إصابة وجه الحق في معرفة ذلك ومتفقون كذلك على أن الحسن ما كان أدوم فائدة وان كان مؤلما في الحال وأن القبيح ماجر الى فساد في النظام الخاص بالشخص أو الشامل له ولمن يتصل به وان عظمت لذته الحاضرة ولكنهم يختلفون في النظر الى كل عمل بعينه اختلافهم في أمزجتهم وسحنهم ومناشئهم وجميع مايكتنف

بهم فلذلك ضربوا الى الشر فى كل وجـه وكل يظن أنه انما يطلب نافعا ويتقى ضارا فالعقل البشري وحده ليس فى استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته فى هذه الحياة اللهم الا فى قليل ممن لم يعرفهم الزمن فان كان لهم من الشأن العظيم مابه عرفهم أشار اليهم الدهر بأصابع الاجيال وقد سبقت الاشارة اليهم فيما مر

وليست عقول الناس سواء في معرفة الله تعالى ولا فى معرفة حياة بعد هذه الحياة فهم وان اتفقوا فى الخضوع لقوة أسمي من قواهم وشعر معظمهم بيوم بعد هذا اليوم ولكن أفسدت الوثنية عقولهم وانحرفت بها عن مسلك السعادة فليس فى سعة العقل الانساني في الافراد كافة أن يعرف من الله ما يجب أن يعرف ولا أن يفهم من الحياة الآخرة ما ينبغي ان يفهم ولا ان يقرر لكل نوع من الاعمال جزاءه فى تلك الدار الآخرة وانما قد تيسر ذلك لقليل ممن اختصه الله بكمال العقل ونور البصيرة وان لم ينل شرف الاقتداء بهدي نبوي ولو بلغه لكان أسرع الناس الى اتباعه وهؤلاء ربما يصلون بأفكارهم الى العرفان من وجه غير ما يليق في الحقيقة أن ينظر منه الى الجلال الالهي

ثم من أحوال الحياة الاخرى ما لا يمكن لعقل بشرى أن يصل اليه وحده وهو تفصيل اللذائذ والآلام وطرق المحاسبة على الاعمال ولو بوجه ما

ومن الاعمال مالا يمكن أن يعرف وجه الفائدة فيه لا في هذه الحياة ولا فيما بعدها كصور العبادات كما يرى في أعداد الركعات وبعض الاعمال في الحج في الديانة الاسلامية وكبعض الاحتفالات في الديانة الموسوية وضروب التوسل والزهادة في الديانة العيسوية كل ذلك مما لا يمكن للعقل البشري أن يستقل بمعرفة وجه الفائدة فيه ويعلم الله أن فيه سعادته

لهذا كله كان العقل الانساني محتاجا في قيادة القوى الادراكية والبدنية الى ما هو خير له في الحياتين الى معين يستعين به في تحديد أحكام الاعمال وتعيين الوجه في الاعتقاد بصفات الألوهية ومعرفة ما ينبغي أن يعرف من أحوال الآخرة وبالجملة فى وسائل السعادة فى الدنيا والآخرة ولا يكون لهذا المعين سلطان على نفسه حتى يكون من بني جنسه ليفهم منه أو عنه ما يقول وحتى يكون ممتازا على سائر الافراد بأمر فائق على ما عرف فى العادة وما عرف في سنة الخليقة ويكون بذلك مبرهنا على أنه يتكلم عن الله الذي يعلم مصالح العباد على ما هي عليه ويعلم صفاته الكمالية وما ينبغي أن يعرف منها والحياة الآخرة وما أعد فيها فيكون الفهم عنه والثقة بأنه يتكلم عن العليم الخبير ومعينا للعقل على ضبط ما تشتت عليه أو درك ما ضعف عن ادراكه وذلك المعين هو النبي

النبوة تحدد ما ينبغي أن يلحظ في جانب واجب الوجود من الصفات

وما يحتاج اليه البشر كافة من ذلك وتشير الى خاصتهم بما يمكن لهم أن يفضلوا به غيرهم في مقامات عرفانهم لكنها لا تحتم الا ما فيه الكفاية للعامة فجاءت النبوات مطالبة بالاعتقاد بوجود الله وبوحدانيته وبالصفات التي أثبتناها على الوجه الذى بيناه وأرشدت الى طرق الاستدلال على ذلك فوجوب المعرفة على هذا الوجه المخصوص وحسن المعرفة وحظر الجهالة أو الجحود بشىء مما أوجبه الشرع في ذلك وقبحه مما لا يعرف الا من طريق الشرع معرفة تطمئن بها النفس ولو استقل عقل بشري بذلك لم يكن على الطريق المطلوب من الجزم واليقين والاقتناع الذى هو عماد الطمأنينة فان زيد على ذلك أن العرفان على ما بينه الشرع يستحق المثوبة المعينة فيه وضده يستحق العقوبة التى نص عليها كانت طريق معرفة الوجوب شرعية محضة غير أن ذلك لا ينافي أن معرفة الله على هذه الصفة حسنة في نفسها وانما جاء الشرع مبينا للواقع فهو ليس محدث الحسن ونصوصه تؤيد ذلك وأذكر امثلا من كثير قال تعالى على لسان يوسف أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار يشير بذلك اشارة واضحة الى أن تفرق الآلهة يفرق بين البشر فى وجهة قلوبهم الى أعظم سلطان يتخذونه فوق قوتهم ويذهب بكل فريق الى التعصب لما وجه قلبه اليه وفى ذلك فساد نظامهم كما لا يخفى أما اعتقاد جميعهم

بالله واحد فهو توحيد لمنازع نفوسهم الى سلطان واحد يخضع الجميع لحكمه وفي ذلك نظام أخوتهم وهي قاعدة سعادتهم وإليها مآلهم فيما أعتقد وان طال الزمان فكما جاء الشرع مطالبا بالاعتقاد جاء هاديا الوجه الحسن فيه

النبوة تحدد أنواع الاعمال التي تناط بها سعادة الانسان في الدارين وتطالبه عن الله بالوقوف عند الحدود التي حددتها وكثيرا ما تبين له مع ذلك وجوه الحسن أو القبح فيما أمر به أو نهى عنه فوجوب عمل من المأمور به أو الندب اليه وحظر عمل أو كراهته من المنهي عنه على الوجه الذي حددته الشريعة وعلى أنه مثاب عليه بأجر كذا ومجازى عليه بعقوبة كذا مما لا يستقل العقل بمعرفته بل طريقة معرفته شرعية وهو لا ينافي أيضا أن يكون المأمور به حسنا في ذاته بمعنى أنه مما يؤدي الى منفعة دنيوية أو أخروية باعتبار أثره في أحوال المعيشة أو في صحة البدن أو في حفظ النفس أو المال أو العرض أو في زيادة تعلق القلب بالله جل شأنه كما هو مفصل في الاحكام الشرعية وقد يكون من الاعمال ما لا يمكن درك حسنه ومن المنهيات ما لا يعرف وجه قبحه وهذا النوع لا حسن له الا الامر ولا قبح له الا النهي والله أعلم

الرسالة العامة

نريد من الرسالة العامة بعثة الرسل لتبليغ شيء من العقائد والاحكام عن الله خالق الانسان وموفيه مالا غنى له عنه كما وفى غيره من الكائنات سداد حاجاتها ووقاء وجودها على القدر الذى حدد لها في رتبة نوعها من الوجود والكلام في هذا البحث من وجهين الاول وهو أيسرهما على المتكلم وجه أن الاعتقاد ببعثة الرسل ركن من أركان الايمان فيجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يعتقد بان الله أرسل رسلا من البشر مبشرين بثوابه ومنذرين بعقابه قاموا بتبليغ أممهم ما أمرهم بتبليغه من تنزيه لذاته وتبيين لسلطانه القاهر على عباده وتفصيل لاحكامه في فضائل أعمال وصفات يطالبهم بها وفي مثالب فعال وخلائق ينهاهم عنها وأن يعتقد بوجوب تصديقهم في أنهم يبلغون ذلك عن الله ووجوب الاقتداء بهم في سيرهم والائتمار بما أمروا به والكف عما نهوا عنه وأن يعتقد بأن منهم من أنزل الله عليه كتبا تشتمل على ما أراد أن يبلغوه من الخبر عنه ومن الحدود والاحكام التي علم الخير لعباده فى الوقوف عندها وأن هذه الكتب التي أنزلت عليهم حق وأن يؤمن بأنهم مؤيدون من العناية الالهية بما لا يعهد للعقول ولا للاستطاعة البشرية وان هذا الامر الفائق لمعروف البشر هو المعجزة الدالة على صدق النبي في دعواه فمتى ادعى الرسول النبوة واستدل عليها

بالمعجزة وجب التصديق برسالته

ومن لوازم ذلك بالضرورة وجوب الاعتقاد بعلو فطرتهم وصحة عقولهم وصدقهم في أقوالهم وأمانتهم في تبليغ ما عهد اليهم أن يبلغوه وعصمتهم من كل مايشوه السيرة البشرية وسلامة أبدانهم مما تنبو عنه الابصار وتنفر منه الاذواق السليمة وأنهم منزهون عما يضاد شيأ من هذه الصفات المتقدمة وأن أرواحهم ممدودة من الجلال الالهي بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليها سطوة روحانية أما فيما عدا ذلك فهم بشر يعتريهم ما يعتري سائر أفراده يأكلون ويشربون وينامون ويسهون وينسون فيما لا علاقة له بتبليغ الاحكام ويمرضون وتمتد اليهم أيدي الظلمة وينالهم الاضطهاد وقد يقتلون

المعجزة ليست من نوع المستحيل عقلا فان مخالفة السير الطبيعي المعروف في الايجاد مما لم يقم دليل على استحالته بل ذلك مما يقع كما يشاهد في حال المريض يمتنع عن الاكل مدة لو لم يأكل فيها وهو صحيح لمات مع وجود العلة التي تزيد الضعف وتساعد الجوع على الاتلاف فان قيل إن ذلك لا بد أن يكون تابعا لناموس آخر طبيعي قلنا إن واضع الناموس هو موجد الكائنات فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات غاية ما في الامر أننا لا نعرفها ولكنا نرى أثرها على يد من اختصه الله

بفضل من عنده على أننا بعد الاعتقاد بأن صانع الكون قادر مختار يسهل علينا العلم بأنه لا يمتنع عليه ان يحدث الحادث على أي هيئة وتابعا لأى سبب اذا سبق في علمه أنه يحدثه كذلك

المعجزة لا بد أن تكون مقرونة بالتحدى عند دعوى النبوة وظهورها من البراهين المثبتة لنبوة من ظهرت على يده لان النبي يستند اليها فى دعواه أنه مبلغ عن الله فاصدار الله لها عند ذلك يعد تأييدا منه له فى تلك الدعوى ومن المحال على الله أن يؤيد الكاذب فان تأييد الكاذب تصديق له وتصديق الكاذب كذب وهو محال على الله فمتي ظهرت المعجزة وهي مما لا يقدر عليه البشر وقارن ظهورها دعوي النبوة علم بالضرورة أن الله ما أظهرها الا تصديقا لمن ظهرت على يده وان كان هذا العلم قد يقارنه الانكار مكابرة

وأما السحر وأمثاله فان سلم أن مظاهره فائقة عن آثار الاجسام والجسمانيات فهى لا تعلو عن متناول القوى الممكنة فلا يقارب المعجزة فى شئ

أما وجوب تلك الصفات المتقدمة للانبياء فلأنهم لو انحطت فطرهم عن فطر أهل زمانهم أو تضاءلت أرواحهم لسلطان نفوس أخر أومس

عقولهم شيء من الضعف لما كانوا أهلا لهذا الاختصاص الالهي الذي
يفوق كل اختصاص اختصاصهم بوحيه والكشف لهم عن أسرار علمه
ولو لم تسلم أبدانهم عن المنفرات لكان انزعاج النفس لمرآهم حجة للمنكر فى
انكار دعواهم ولو كذبوا أو خانوا أو قبحت سيرتهم لضعفت الثقة بهم
ولكانوا مضلين لا مرشدين فتذهب الحكمة من بعثهم والامر كذلك لو
أدركهم السهو أو النسيان فيما عهد اليهم تبليغه من العقائد والاحكام
أما وقوع الخطأ منهم فيما ليس من الحديث عن الله ولا له مدخل في
التشريع فجوزه بعضهم والجمهور على خلافه وما ورد من مثل أن النبي
صلى الله عليه وسلم نهى عن تأبير النخل ثم أباحه لظهور أثره في الاثمار فانما
فعله عليه الصلاة والسلام ليعلم الناس أن ما يتخذونه من وسائل الكسب
وطرق الصناعات فهو موكول لمعارفهم وتجاربهم ولا حظر عليهم فيه
مادامت الشرائع مرعية والفضائل محمية وما حكاه الله من قصة آدم
وعصيانه بالاكل من الشجرة فما خفي فيه سر النهي عن الاكل والمؤاخذة
عليه وغاية ما علمناه من حكمته أنه كان سببا لعمارة الارض ببني آدم كأن
النهي والاكل رمزان الى طورين من أطوار آدم عليه السلام أو مظهران
من مظاهر النوع الانساني فى الوجود والله أعلم ومن العسر إقامة الدليل
العقلي أو إصابة دليل شرعي يقطع بما ذهب اليه الجمهور

حاجة البشر الى الرسالة

سبق لك فى الفصل السابق ما يهم الكلام عليه من الوجه الاول وهو وجه ما يجب على المؤمن اعتقاده فى الرسل والكلام فى هذا الفصل موجه ان شاء الله الى بيان الحاجة اليهم وهو معترك الافهام ومزلة الاقدام ومزدحم الكثير من الافكار والاوهام ولسنا بصدد الاتيان بما قال الاولون ولا عرض ماذهب اليه الآخرون ولكنا نلزم ماالتزمنا فى هذه الوريقات من بيان المعتقد والذهاب اليه من أقرب الطرق من غير نظر الى ما مال اليه المخالف أو استقام عليه الموافق اللهم الا الإشارة من طرف خفى أو إلماعا لا يستغنى عنه القول الجلى

وللكلام في بيان الحاجة الى الرسل مسلكان ﴿الاول﴾ وقد سبق الاشارة اليه يبتدئ من الاعتقاد ببقاء النفس الانسانية بعد الموت وأن لها حياة أخرى بعد الحياة الدنيا تتمتع فيها بنعيم أو تشقي فيها بعذاب أليم وأن السعادة والشقاء فى تلك الحياة الباقية معقودان بأعمال المرء في حياته الفانية سواء كانت تلك الاعمال قلبية كالاعتقادات والمقاصد والارادات أو بدنية كانواع العبادات والمعاملات

اتفقت كلمة البشر موحدين ووثنيين ومليين وفلاسفة الا قليلا لا يقام لهم وزن على أن لنفس الانسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن وأنها لا تموت

موت فناء وانما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء. وان اختلفت منازعهم في تصوير ذلك البقاء وفيما تكون عليه النفس فيه وتباينت مشاربهم في طرق الاستدلال عليه فمن قائل بالتناسخ فى أجساد البشر أو الحيوان على الدوام ومن ذاهب الى أن التناسخ ينتهى عند ما تبلغ النفس أعلى مراتب الكمال ومنهم من قال انها متي فارقت الجسد عادت الى تجردها عن المادة حافظة لما فيه لذتها أو مابه شقوتها ومنهم من رأى أنها تتعلق بأجسام أثيرية ألطف من هذه الاجسام المرئية وكان اختلاف المذاهب فى كنه السعادة والشقاء الاخرويين وفيما هو متاع الحياة الآخرة وفى الوسائل التى تعد للنعيم أو تبعد عن النكال الدائم وتضارب آراء الامم فيه قديما وحديثا مما لا تكاد تحصى وجوهه

هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة المنبث في جميع الانفس عالمها وجاهلها وحشيها ومستأنسها باديها وحاضرها قديمها وحديثها لا يمكن أن يعد ضلة عقلية أو نزغة وهمية وانما هو الالهامات التي اختص بها هذا النوع فكما ألهم الانسان أن عقله وفكره هما عماد بقائه في هذه الحياة الدنيا وإن شذ أفراد منه ذهبوا الى أن العقل والفكر ليسا بكافيين للارشاد في عمل ما أو الى أنه لا يمكن للعقل أن يوقن باعتقاد ولا للفكر أن يصل الى مجهول بل قالوا أن لا وجود للعالم الا في اختراع الخيال وانهم

شاكون حتى في أنهم شاكون ولم يطعن شذوذ هؤلاء في صحة الالهام العام المشعر لسائر أفراد النوع أن الفكر والعقل هما ركن الحياة وأس البقاء الى الاجل المحدود كذلك قد ألهمت العقول وأشعرت النفوس أن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للانسان في الوجود بل الانسان ينزع هذا الجسد كما ينزع الثوب عن البدن ثم يكون حيا باقيا في طور آخر وان لم يدرك كنهه ذلك إلهام يكاد يزاحم البديهة في الجلاء يشعر كل نفس أنها خلقت مستعدة لقبول معلومات غير متناهية من طرق غير محصورة شيقة الى لذائذ غير محدودة ولا واقفة عند غاية مهيأة لدرجات من الكمال لا تحددها أطراف المراتب والغايات معرضة لآلام من الشهوات ونزعات الاهواء ونزوات الامراض على الاجساد ومصارعة الاجواء والحاجات وضروب من مثل ذلك لا تدخل تحت عد ولا تنتهى عند حد إلهام يستلفتها بعد هذا الشعور الى أن واهب الوجود للانواع انما قدر الاستعداد بقدر الحاجة في البقاء ولم يعهد في تصرفه العبث والكيل الجزاف فما كان استعداده لقبول ما لا يتناهي من معلومات وآلام ولذائذ وكمالات لا يصح أن يكون بقاؤه قاصرا على أيام أو سنين معدودات

شعور يهيج بالارواح الى تحسس هذا البقاء الابدي وما عسى أن تكون

عليه متى وصلت اليه و كيف الاهتداء وأين السبيل وقد غاب المطلوب وأعوز الدليل شعورنا بالحاجة إلى استعمال عقولنا فى تقويم هذه المعيشة القصيرة الامد لم يكفنا فى الاستقامة على المنهج الاقوم بل لزمتنا الحاجة الى التعليم والارشاد وقضاء الازمنة والاعصار فى تقويم الانظار وتعديل الافكار واصلاح الوجدان وتثقيف الاذهان ولا نزال الى الآن من هم هذه الحياة الدنيا في اضطراب لا ندري متي نخلص منه وفى شوق الى طمأنينة لا نعلم متى ننتهى اليها

هذا شأننا فى فهم عالم الشهادة فماذا نؤمل من عقولنا وأفكارنا فى العلم بما في عالم الغيب هل فيما بين أيدينا من الشاهد معالم نهتدي بها الى الغائب وهل فى طرق الفكر ما يوصل كل أحد الي معرفة ما قدر له فى حياة يشعر بها وبان لا مندوحة عن القدوم عليها ولكن لم يوهب من القوة ماينفذ الى تفصيل ما أعدله فيها والشؤن التي لا بد أن يكون عليها بعد مفارقة ماهو فيه أو الى معرفة بيد من يكون تصريف تلك الشؤن هل فى أساليب النظر ما يأخذ بك الى اليقين بمناطها من الاعتقادات والاعمال وذلك الكون مجهول لديك وتلك الحياة في غاية الغموض بالنسبة اليك كلا فان الصلة بين العالمين تكاد تكون منقطعة في نظر العقل ومرامي المشاعر ولا اشتراك بينهما الا فيك أنت فالنظر في المعلومات الحاضرة لا يوصل

الى اليقين بحقائق تلك العوالم المستقبلة

أفليس من حكمة الصانع الحكيم الذى أقام أمر الانسان على قاعدة الارشاد والتعليم الذى خلق الانسان وعلمه البيان علمه الكلام للتفاهم والكتاب للتراسل أن يجعل من مراتب الانفس البشرية مرتبة يعدلها بمحض فضله بعض من يصطفيه من خلقه وهو أعلم حيث يجعل رسالته يميزهم بالفطر السليمة ويبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه للاستشراق بأنوار علمه والامانة على مكنون سره مما لو انكشف لغيرهم انكشافه لهم لفاضت له نفسه أو ذهبت بعقله جلالته وعظمه فيشرفون على الغيب باذنه ويعلمون ماسيكون من شأن الناس فيه ويكونون في مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين نهاية الشاهد وبداية الغائب فهم في الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها وهم وفد الآخرة في لباس من ليس من سكانها ثم يتلقون من أمره أن يحدثوا عن جلاله وما خفى على العقول من شؤن حضرته الرفيعة بما يشاء أن يعتقده العباد فيه وماقدر أن يكون له مدخل في سعادتهم الاخروية وأن يبينوا للناس من أحوال الآخرة مالا بد لهم من علمه معبرين عنه بما تحتمله طاقة عقولهم ولا يبعد عن متناول أفهامهم وأن يبلغوا عنه شرائع عامة تحدد لهم سيرهم في تقويم نفوسهم وكبح شهواتهم وتعلمهم من الاعمال ماهو مناط

سعادتهم وشقائهم في ذلك الكون المغيب عن مشاعرهم بتفصيله اللاصق علمه باعماق ضمائرهم في إجماله ويدخل في ذلك جميع الاحكام المتعلقة بكليات الاعمال ظاهرة وباطنة ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من الآيات حتى تقوم بهم الحجة ويتم الاقناع بصدق الرسالة فيكونون بذلك رسلا من لدنه الى خلقه مبشرين ومنذرين

لا ريب أن الذى أحسن كل شئ خلقه وأبدع في كل كائن صنعه وجاد على كل حي بما اليه حاجته ولم يحرم من رحمته حقيرا ولا جليلا من خلقه يكون من رأفته بالنوع الذى أجاد صنعه وأقام له من قبول العلم ما يقوم مقام المواهب التى اختص بها غيره أن ينقذه من حيرته ويخلصه من التخبط في أهم حياتيه والضلال فى أفضل حاليه

يقول قائل ولم لم يودع فى الغرائز ما تحتاج اليه من العلم ولم يضع فيها الانقياد الى العمل وسلوك الطريق المؤدية الى الغاية فى الحياة الآخرة وما هذا النحو من عجائب الرحمة فى الهداية والتعليم وهو قول يصدر عن شطط العقل والغفلة عن موضوع البحث وهو النوع الانساني ذلك النوع على ما به وما دخل في تقويم جوهره من الروح المفكر وما اقتضاه ذلك من الاختلاف فى مراتب الاستعداد باختلاف أفراده وأن لا يكون كل فرد منه مستعد الكل حال بطبعه وأن يكون وضع وجوده على عماد

البحث والاستدلال فلو ألهم حاجاته كما تلهم الحيوانات لم يكن هو ذلك النوع بل كان إما حيوانا آخر كالنحل والنمل أو ملكا من الملائكة ليس من سكان هذه الارض

﴿المسلك الثاني﴾ في بيان الحاجة الى الرسالة يأخذ من طبيعة الانسان نفسه أرتنا الايام غابرها وحاضرها أن من الناس من يختزل نفسه من جماعة البشر وينقطع الى بعض الغابات أو الى رؤس الجبال ويستأنس الى الوحش ويعيش عيش الاوابد من الحيوان يتغذى بالاعشاب وجذور النبات ويأوى الى الكهوف والمغاور ويتقى بعض العوادي عليه بالصخور والاشجار ويكتفى من الثياب بما يخصف من ورق الشجر أو جلود الهالك من حيوان البر ولا يزال كذلك حتى يفارق الدنيا ولكن مثل هذا مثل النحلة تنفرد عن الدبر وتعيش عيشة لا تتفق مع ما قدر لنوعها وانما الانسان نوع من تلك الانواع التي غرز في طبعها أن تعيش مجتمعة وان تعددت فيها الجماعات على أن يكون لكل واحد من الجماعة عمل يعود على المجموع في بقائه وللمجموع من العمل ما لا غنى للواحد عنه في نمائه وبقائه وأودع في كل شخص من أشخاصها شعور ما بحاجته الى سائر أفراد الجماعة التي يشملها اسم واحد وتاريخ وجود الانسان شاهد بذلك فلا حاجة الى الاطالة في بيانه وكفاك من الدليل على أن الانسان

لا يعيش الا في جملة ماوهبه من قوة النطق فلم يخلق لسانه مستمد التصوير المعاني في الالفاظ وتأليف العبارات الا لاشتداد الحاجة به الى التفاهم وليس الاضطرار الى التفاهم بين اثنين أو أكثر الا الشهادة بأن لا غنى لاحدهم عن الآخر

حاجة كل فرد من الجماعة الى سائرها مما لا يشتبه فيه وكلما كثرت مطالب الشخص في معيشته ازدادت به الحاجة الى الايدي العاملة فتمتد الحاجة وعلى اثرها الصلة من الاهل الى العشيرة ثم الى الامة والى النوع بأسره وأيامنا هذه شاهدة على أن الصلة التابعة للحاجة قد تم النوع كما لا يخفى هذه الحاجة خصوصا في الامة التي حققت عنوانها الصلات وعلائق ميزتها عمن سواها حاجة فى البقاء حاجة في التمتع بمزايا الحياة حاجة في جلب الرغائب ودفع المكاره من كل نوع

لو جرى أمر الانسان على أساليب الخلقة فى غيره لكانت هذه الحاجة من أفضل عوامل المحبة بين أفراده عامل يشعر كل نفس أن بقاءها مرتبط ببقاء الكل . فالكل منها بمنزلة بعض قواها المسخرة لمنافعها ودرء مضارها والمحبة عماد السلم ورسول السكينة الى القلوب هى الدافع لكل من المتحابين على العمل لمصلحة الآخر الناهض بكل منهما للمدافعة عنه فى حالة الخطر فكان من شأن المحبة أن تكون حفاظ النظام الامم وروحا لبقائها

وكان من حالها أن تكون ملازمة للحاجة على مقتضى سنة الكون فان المحبة حاجة لنفسك الى من تحب أوما تحب فان اشتدت كانت ولعا وعشقا

لكن كان من قوانين المحبة أن تنشأ وتدوم بين متحابين اذا كانت الحاجة الى ذات المحبوب أوماهو فيها لا يفارقها ولا يكون هذا النوع منها في الانسان الا اذا كان منشؤه أمرا في روح المحبوب وشمائله التي لا تفارق ذاته حتى تكون لذة الوصول في نفس الاتصال لا في عارض يتبعه فاذا عرض التبادل والتعاوض ولوحظ في العلاقة بينهما تحولت المحبة الى رغبة في الانتفاع بالعوض وتعلقت بالمنتفع به لا بمصدر الانتفاع وقام بين الشخصين مقام المحبة إما سلطان القوة أو ذلة المخافة أو الدهان والخديعة من الجانبين

يحب الكلب سيده ويخلص له ويدافع عنه دفاع المستميت لما يرى أنه مصدر الاحسان اليه في سداد عوزه فصورة شبعه وريه وحمايته مقرونة في شعوره بصورة من يكفلها له فهو يتوقع فقدها بفقده فيحرص عليه حرصه على حياته ولو أنه انتقل من حوزته الى حوزة آخر وغاب عنه السنين ثم رآه معرضا لخطر ماعادت اليه تلك الصور يصل بعضها بعضا واندفع الى خلاصه بما تمكنه القوة

ذلك لان الالهام الذي هدى به شعور الكلب ليس مما تتسع به المذاهب فوجدانه يتردد بين الاحسان ومصدره وليس له وراءهما مذهب فحاجته في سد عوزه هي حاجته الى القائم بأمره فيحبه محبته لنفسه ولا يبخس منها شوب التماوض في الخدمة

أما الانسان وما أدراك ماهو فليس أمره على ذلك ليس ممن يلهم ولا يتعلم ولا ممن يشعر ولا يتفكر بل كان كماله النوعي في اطلاق مداركه عن القيد ومطالبه عن النهايات وتسليمه على صغره الى العالم الاكبر على جلالته وعظمه يصارعه بعوامله وهي غير محصورة حتى يعتصر منه منافعه وهي غير محدودة وايداعه من قوى الادراك والعمل ما يعينه على المغالبة ويمكنه من المطالبة بسعيه ورأيه ويتبع ذلك أن يكون له في كل كائن مما يصل اليه لذة وبجوار كل لذة ألم ومخافة فلا تنتهي رغائبه الى غاية ولا تقف مخاوفه عند نهاية (إن الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا) تفاوتت أفراده في مواهب الفهم وفي قوى العمل وفي الهمة والعزم فمنهم المقصر ضعفا أو كسلا المتطاول في الرغبة شهوة وطمعا يرى في أخيه أنه العون له على ما يريد من شؤن وجوده لكنه يذهب من ذلك الى تخيل اللذة في الاستئثار بجميع ما في يده ولا يقنع بمعاوضته في ثمرة من ثمار عمله وقد يجد اللذة في أن يتمتع ولا يعمل ويرى

الخير في أن يقيم مقام العمل إعمال الفكر في استنباط ضروب الحيل ليتمتع وان لم ينفع ويغلب عليه ذلك حتى يخيل له أن لا ضير عليه لو انفرد بالوجود عمن يطلب مغالبته ولا يبالي بارساله الى عالم العدم بعد سلبه فكلما حثه الذكر والخيال الى دفع مخافة أو الوصول الى لذيذ فتح له الفكر بابا من الحيلة أو هيأ له وسيلة لاستعمال القوة فقام التناهب مقام التواهب وحل الشقاق محل الوفاق وصار الضابط لسيرة الانسان إما الحيلة وإما القهر

هل وقف الهوى بالانسان عند التنافس فى اللذائذ الجسدانية وتجالد أفراده طمعا في وصول كل الى ما يظنه غاية مطالبه وان لم تكن له غاية كلا ولكن قدر له أن تكون له لذائذ روحانية وكان من أعظم همه أن يشعر بالكرامة له في نفس غيره ممن تجمعه معهم جامعة ما حسبما عند اليه نظره وقد بلغت هذه الشهوة حد من الانفس كادت تتغلب على جميع الشهوات وأخذت لذة الوصول اليها من الارواح مكانا كاد لا تصعد اليه سائر اللذات وهي من أفضل العوامل فى إحراز الفضائل وتمكين الصلات بين الافراد والامم لو صرفت فيما سيقت لاجله ولكن انحرف بها السبيل كما انحرف بغيرها للاسباب التي اشرنا اليها من التفاوت في مراتب الادراك والهمة والعزيمة حتى خيل لكثير من العقلاء أن يسعى الى إعلاء منزلته فى

القلوب باخافة الامن وازعاج الساكن واشعار القلوب رهبة المخافة لاتهيب الحرمة

هل يمكن مع هذا أن يستقيم أمر جماعة بني نظامهم وعلق بقاؤهم في الحياة على تعاونهم ورفد بعضهم بعضا فى الاعمال أولا تكون هذه الافاعيل السابق ذكرها سببا في تفانيهم لاريب أن البقاء على تلك الاحوال من ضروب المحال فلابد للنوع الانساني فى حفظ بقائه من المحبة أو ماينوب منابها

لجأ بعض أهل البصيرة فى أزمنة مختلفة الى العدل وظنوا كما ظن بعض العارفين ونطق به في كلمة جليلة أن العدل نائب المحبة نعم لايخلوا القول من حكمة ولكن من الذي يضع قواعد العدل ويحمل الكافة على رعايتها • قيل ذلك هو العقل فكما كان الفكر والذكر والخيال ينابيع الشقاء كذلك تكون وسائل السعادة وفيها مستقر السكينة وقد رأينا أن اعتدال الفكر وسعة العلم وقوة العقل وأصالة الحكم تذهب بكثير من الناس الى ماوراء حجب الشهوات وتعلو بهم فوق ماتخيله المخاوف فيعرفون لكل حق حرمته ويميزون بين لذة مايفنى ومنفعة مايبقى وقد جاء منهم أفراد فى كل أمة وضعوا أصول الفضيلة وكشفوا وجوه الرذيلة وقسموا أعمال الانسان الى ماتحضر لذته وتسوء عاقبته وهو مايجب

اجتنابه والى ماقد يشق احتماله ولكن تسر مغباته وهو مايجب الاخذ به ومنهم من أنفق في الدعوة الى رأيه نفسه وماله وقضى شهيد إخلاصه فى دعوة قومه إلى مايحفظ نظامهم فهؤلاء العقلاء هم الذين يضعون قواعد العدل وعلى أهل السلطان أن يحملوا الكافة على رعايتها وبذلك يستقيم أمر الناس

هذا قول لا يجافي الحق ظاهره ولكن هل سمع فى سيرة الانسان وهل ينطبق على سنته أن يخضع كافة أفراده أو الغالب منهم لرأى العاقل لمجرد أنه الصواب وهل كفى في إقناع جماعة منه كشعب أو أمة قول عاقلهم إنهم مخطؤن وإن الصواب فيما يدعوهم اليه وان أقام على ذلك من الادلة ماهو أوضح من الضياء وأجلى من ضرورة المحبة للبقاء كلا لم يعرف ذلك فى تاريخ الانسان ولا هو مما ينطبق على سنته فقد تقدم لنا أن مهب الشقاء هو تفاوت الناس في الادراك وهم مع ذلك يدعون المساواة فى العقول والتقارب فى الاصول ولا يعرف جمهورهم من حال الفاضل إلا كما يعرف من أمر الجاهل ومن لم يكن فى مرتبتك من العقل لم يذق مذاقك من الفضل فمجرد البيان العقلى لا يدفع نزاعا ولا يرد طمأنينة وقد يكون القائم على ماوضع من شريعة العقل ممن يزعم أنه أرفع من واضعها فيذهب بالناس مذهب شهواته فتذهب حرمتها ويتهدم بناؤها ويفقد ماقصد

يوضعها

أضف الى ماسبق من لوازم نزعات الفكر ونزغات الاهواء شعوراهو ألصق بالغريزة البشرية وأشد لزوما لها كل انسان مهما علا فكره وقوى عقله أوضعفت فطنته وانحطت فطرته يجد من نفسه أنه مغلوب لقوة أرفع من قوته وقوة ماأنس منه الغلبة عليه مما حوله وأنه محكوم بارادة تصرفه وتصرف ماهو فيه من العوالم فى وجوه قدلا تعرفها معرفة العارفين ولا تتطرف اليها ارادة المختارين تشعر كل نفس أنها مسوقة لمعرفة تلك القوة العظمى فتطلبها من حسها تارة ومن عقلها أخرى ولا سبيل لها الا الطريق التي حددت لنوعها وهي طريق النظر فذهب كل في طلبها وراء رائد الفكر فمنهم من تأولها ببعض الحيوانات لكثرة نفعها أو شدة ضررها ومنهم من تمثلت له في بعض الكواكب لظهور أثرها ومنهم من حجبته الاشجار والاحجار لاعتبارات له فيها ومنهم من تبدت له آثار قوى مختلفة فى أنواع متفرقة تماثل فى أفراد كل نوع وتخالف بتخالف الانواع فجعل لكل نوع إلها ولكن كلما رق الوجدان ولطفت الاذهان ونفذت البصائر ارتقع الفكر وجلت النتائج فوصل من بلغ به علمه بعض المنازل من ذلك الى معرفة هذه القدرة الباهرة واهتدى الى أنها قدرة واجب الوجود غير أن من أسرار الجبروت ما غمض

عليه فلم يسلم من الخبط فيه ثم لم يكن له من الميزة الفائقة في قوته مايحملهم على الاهتداء بهديه فبقي الخلاف ذائما والرشد ضائعا اتفق الناس فى الاذعان لما فاق قدرهم وعلا متناول استطاعتهم لكنهم اختلفوا في فهم ماتلجئهم الفطرة الى الاذعان له اختلافا كان أشد أثرا فى التقاطع بينهم وإثارة أعاصير الشقاق فيهم من اختلافهم فى فهم النافع والضار لغلبة الشهوات عليهم

ان كان الانسان قد فطر على أن يعيش في جملة ولم يمنح مع تلك الفطرة مامنحه النحل وبعض أفراد النمل مثلا من الالهام الهادي الى مايلزم لذلك وانما ترك الى فكره يتصرف به على نحو ماسبق كما فطر على الشعور بقاهر تنساق نفسه بالرغم عنها الى معرفته ولم يفض عليه مع ذلك الشعور عرفانه بذات ذلك القاهر ولا صفاته وانما ألقي به فى مطارح النظر تحمله الافكار فى مجاريها وترمي به الى حيث يدري ولا يدري وفى كل ذلك الويل على جامعته والخطر على وجوده أفهل مني هذا النوع بالنقص ورزئ بالقصور عن مثل مابلغه أضعف الحيوانات وأحطها في منازل الوجود نعم هو كذلك لولا ماأتاه الصانع الحكيم من ناحية ضعفه

الانسان عجيب فى شأنه يصعد بقوة عقله الى أعلى مراتب الملكوت

ويطاول بفكره أرفع معالم الجبروت ويسامي بقوته مايعظم عن أن يسامى من قوى الكون الاعظم ثم يصغر ويتضاءل وينحط الى أدنى درك من الاستكانة والخضوع متى عرض له أمر مالم يعرف سببه ولم يدرك منشأه ذلك لسر عرفه المستبصرون واستشعرته نفوس الناس أجمعين

من ذلك الضعف قيد الى هداه ومن تلك الضعة أخذ بيده الى شرف سعادته أكمل الواهب الجواد لجملته ما اقتضت حكمته في تخصيص نوعه بما يميزه عن غيره أن ينقص من أفراده وكما جاد على كل شخص بالعقل المصرف للحواس لينظر في طلب اللقمة وستر العورة والتوقي من الحر والبرد جاد على الجملة بما هو أمس بالحاجة فى البقاء وآثر في الوقاية من غوائل الشقاء وأحفظ لنظام الاجتماع الذي هو عماد كونه بالاجماع من عليه بالنائب الحقيقي عن المحبة بل الراجع بها الى النفوس التي أقفرت منها لم يخالف سنته فيه من بناء كونه على قاعدة التعليم والارشاد غير أنه أتاه مع ذلك من أضعف الجهات فيه وهي جهة الخضوع والاستكانة فأقام له من بين أفراده مرشدين هادين وميزهم من بينها بخصائص في أنفسهم لا يشركهم فيها سواهم وأيد ذلك زيادة في الاقناع بآيات باهرات تملك النفوس وتأخذ الطريق على سوابق العقول فيستخذى الطامح ويذل الجامح ويصطدم بها عقل العاقل فيرجع الى رشده وينبهر لها بصر

الجاهل فيرتدع عن غيه يطرقون القلوب بقوارع من أمر الله ويدهشون المدارك ببواهر من آياته فيحيطون العقول بالامندوحة عن الاذعان له ويستوى فى الركون لما يجيؤن به المالك والمملوك والسلطان والصعلوك والعاقل والجاهل والمفضول والفاضل فيكون الاذعان لهم أشبه بالاضطرارى منه بالاختياري النظري يعلمونهم ماشاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم وما أراد أن يعلموه من شؤن ذاته وكمال صفاته وأولئك هم الانبياء والمرسلين فبعثة الانبياء صلوات الله عليهم من متممات كون الانسان ومن أهم حاجاته في بقائه ومنزلتها من النوع منزلة العقل من الشخص نعمة أتمها الله لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وسنتكلم عن وظيفتهم بنوع من التفصيل فيما بعد

امكان الوحى

الكلام في امكان الوحي يأتي بعد تعريفه لتصوير المعنى الذى يراد منه ولنعرف المعنى الحاصل بالمصدر فيفهم معني المصدر نفسه ولا يعنينا ماتثيره الالفاظ فى الاذهان ولنذكر من اللغة ماينا سبه . يقال وحيت اليه وأوحيت اذا كلمته بما تخفيه عن غيره والوحى مصدر من ذلك والمكتوب والرسالة وكل ماألقيته الى غيرك ليعلمه ثم غلب فيما يلقي الى الانبياء من قبل الله وقيل الوحى إعلام في خفاء ويطلق ويراد به الموحى وقد عرفوه شرعا

أنه كلام الله تعالى المنزل على نبي من أنبيائه أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة والاول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت ويفرق بينه وبين الالهام بأن الالهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق الى مايطلب على غير شعور منها من أين أتي وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور أما إمكان حصول هذا النوع من العرفان (الوحي) وانكشاف ماغاب من مصالح البشر عن عامتهم لمن يختصه الله بذلك وسهولة فهمه عند العقل فلا أراه مما يصعب ادراكه الاعلى من لا يريد أن يدرك ويحب أن يرغم نفسه الفهامة على أن لا تفهم نعم يوجد في كل أمة وفي كل زمان أناس يقذف بهم الطيش والنقص في العلم الى ماوراء سواحل اليقين فيسقطون في غمرات من الشك في كل مالم يقع تحت حواسهم الخمس بل قد يدركهم الريب فيما هو من متناولها كما سبقت الاشارة اليه فكأنهم بسقطتهم هذه انحطوا الى ما هو أدنى من مراتب أنواع أخرى من الحيوان فينسون العقل وشؤنه وسره ومكنونه ويجدون في ذلك لذة الاطلاق عن قيود الاوامر والنواهي بل عن محابس الحشمة التي تضمهم الى التزام مايليق وتحجزهم عن مقارفة مالايليق كما هو حال غير الانسان من الحيوان فاذا عرض عليهم شيء من الكلام في النبوات والاديان وهم من أنفسهم هام

بالاصغاء دافعوه بما أوتوا من الاختيار فى النظر وانصرفوا عنه وجعلوا أصابعهم في آذانهم حذر أن يخالط الدليل أذهانهم فيلزمهم العقيدة وتتبعها الشريعة فيحرموا لذة ماذاقوا وما يحبون أن يتذوقوا وهو مرض فى الانفس والقلوب يستشفي منه بالعلم ان شاء الله

قلت أى استحالة فى الوحى وأن ينكشف لفلان مالا ينكشف لغيره من غير فكر ولا ترتيب مقدمات مع العلم أن ذلك من قبل واهب الفكر ومانح النظر متي حفت العناية من ميزته هذه النعمة

مما شهدت به البديهة أن درجات العقول متفاوتة يعلو بعضها بعضا وأن الادني منها لا يدرك ما عليه الاعلى إلا على وجه من الاجمال وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب في التعليم فقط بل لا بدمعه من التفاوت في الفطر التى لا مدخل فيها لاختيار الانسان وكسبه ولا شبهة فى أن من النظريات عند بعض العقلاء ماهو بديهى عند من هو أرقى منه ولا تزال المراتب ترتقي في ذلك الى مالا يحصره العدد وان من أرباب الهمم وكبار النفوس ما يرى البعيد عن صغارها قريبا فيسعى اليه ثم يدركه والناس دونه ينكرون بدايته ويعجبون لنهايته ثم يألفون ماصار اليه كأنه من المعروف الذى لا ينازع والظاهر الذي لا يجاحد فاذا أنكره منكر ثاروا عليه ثورتهم في بادئ الامر على من دعاهم اليه ولا يزال هذا الصنف من الناس على

فانه ظاهرا في كل أمة الى اليوم

فاذا سلم «ولا محيص عن التسليم» بما أسلفنا من المقدمات فمن ضعف العقل والنكول عن النتيجة اللازمة لمقدماتها عند الوصول اليها أن لا يسلم بأن من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر بأصل الفطرة ما تستعد به من محض الفيض الالهى لأن تتصل بالافق الاعلى وتنتهى من الانسانية الى الذروة العليا وتشهد من أمر الله شهود العيان مالم يصل غيرها الى تعقله أو تحسسه بعصى الدليل والبرهان وتتلقى عن العليم الحكيم ما يعلو وضوحا على ما يتلقاه أحدنا عن أساتذة التعاليم ثم تصدر عن ذلك العلم الى تعليم ما علمت ودعوة الناس الى ما حملت على ابلاغه اليهم وأن يكون ذلك سنة لله في كل أمة وفى كل زمان على حسب الحاجة يظهر برحمته من يختصه بعنايته ليفى للاجتماع بما يضطر اليه من مصلحته الى أن يبلغ النوع الانساني أشده وتكون الأعلام التي نصبها لهدايته الى سعادته كافية في ارشاده فتختم الرسالة ويغلق باب النبوة كما سنأتي عليه فى رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم

أما وجود بعض الارواح العالية وظهورها لاهل تلك المرتبة السامية فمما لا استحالة فيه بعد ما عرفنا من أنفسنا وأرشدنا اليه العلم قديمه وحديثه من اشتمال الوجود على ما هو ألطف من المادة وان غيب عنا

فأي مانع من أن يكون بعض هذا الوجود اللطيف مشرقا لشيء من العلم الالهي وأن يكون لنفوس الانبياء إشراف عليه فاذا جاء به الخبر الصادق حملنا على الاذعان بصحته

أما تمثل الصوت وأشباح لتلك الارواح في حس من اختصه الله بتلك المنزلة فقد عهد عند أعداء الانبياء مالا يبعد عنه في بعض المصابين بأمراض خاصة على زعمهم فقد سلموا أن بعض معقولاتهم يتمثل فى خيالهم ويصل الى درجة المحسوس فيصدق المريض في قوله انه يرى ويسمع بل يجالد ويصارع ولا شيء من ذلك في الحقيقة بواقع فان جاز التمثل فى الصور المعقولة ولا منشأ لها الا فى النفس وان ذلك يكون عند عروض عارض على المخ فلم لا يجوز تمثل الحقائق المعقولة في النفوس العالية وأن يكون ذلك لها عند ما تنزع عن عالم الحس وتتصل بحظائر القدس وتكون تلك الحال من لواحق صحة العقل في أهل تلك الدرجة لاختصاص مزاجهم بما لا يوجد في مزاج غيرهم وغاية ما يلزم عنه أن يكون لعلاقة أرواحهم بأبدانهم شأن غير معروف في تلك العلاقة من سواهم وهو مما يسهل قبوله بل يتحتم لان شأنهم فى الناس أيضا غير الشؤن المألوفة وهذه المغايرة من أهم ما امتازوا به وقام منها الدليل على رسالتهم والدليل على سلامة شهودهم وصحة ما يحدثون عنه أن

أمراض القلوب تشفي بدوائهم وان ضعف العزائم والعقول يتبدل بالقوّة في أممهم التي تأخذ بعقالهم ومن المنكر في البديهة أن يصدر الصحيح من معتلّ ويستقيم النظام بمختل

أما أرباب النفوس العالية والعقول السامية من العرفاء ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الانبياء ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء فكثير منهم نال حظه من الانس بما يقارب تلك الحال في النوع أو الجنس لهم مشارفة في بعض أحوالهم على شيء من عالم الغيب ولهم مشاهد صحيحة في عالم المثال لا تنكر عليهم لتحقق حقائقها في الواقع فهم لذلك لا يستبعدون شيأ مما يحدّث به عن الانبياء صلوات الله عليهم ومن ذاق عرف ومن حرم انحرف ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه ظهور الاثر الصالح منهم وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم وطهارة فطرهم مما ينكره العقل الصحيح أو يمجه الذوق السليم واندفاعهم بباعث من الحق الناطق في سرائرهم المتلألئ في بصائرهم الى دعوة من يحف بهم الى ما فيه خير العامة وترويح قلوب الخاصة ولا يخلو العالم من متشبهين بهم ولكن ما أسرع ما ينكشف حالهم ويسوء مآلهم وما آل من غرروا به ولا يكون لهم الاسوء الاثر في تضليل العقول وفساد الاخلاق وانحطاط شأن القوم الذين رزؤا بهم الا

أن يتداركهم الله بلطفه فتكون كلمتهم الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها من قرار فلم يبق بين المنكرين لاحوال الانبياء ومشاهدهم وبين الاقرار بامكان ما انبؤا به بل وبوقوعه الا حجاب من العادة وكثيرا ما حجب العقول حتى عن ادراك أمور معتادة

وقوع الوحي والرسالة

الدليل على رسالة نبي وصدقه فيما يحكى عن ربه ظاهر للشاهد الذي يرى حاله ويبصر ما آتاه الله من الآيات البينات ويحقق بالعيان ما يغنيه عن البيان كما سلف في الوجه الاول من الكلام على الرسالة أما للغائب عن زمن البعثة فدليلها التواتر وهو كما تبين فى علم آخر رواية خبر عن مشهود من جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب وآيته قهر النفس على اليقين بما جاء فيه كالاخبار بوجود مكة أو بان للصين عاصمة تسمي بكين وسبب استحالة التواطؤ على الكذب استيفاء الخبر لشرائط معلومة وخلوه من عوارض تضعف الثقة به ومرجع كل ذلك الى العدد وبعد الراوى عن التشيع لمضمون الخبر

لا نزاع بين العقلاء فى أن هذا النوع من الاخبار يحصل اليقين بالمخبر به وانما النزاع فى اعتبارات تتعلق به ومن الانبياء ما استوفى الخبر عنهم شرائط التواتر كابراهيم وموسى وعيسى ومما جاء به الخبر أنهم لم يكونوا

فيمن بعثوا بينهم بالأقوى سلطانا ولا بالأكثر مالا ولم يختصهم أحد بالعناية بهم لتعليمهم علم مادعوا اليه وغاية الامر أنهم لم يكونوا من الادنين الذين تعافهم النفوس وتنبو عنهم الانظار ومع ذلك واستحكام السلطان لغيرهم ووفرة المال لديه واستعلائه عليهم بما كسب من العلم قاموا بدعوة الى الله على رغم الملوك وأجنادهم وصاحوا بهم صيحة زلزلتهم في عروشهم وادّعوا أنهم يبلغون عن خالق السموات والارض ما أراد شرعه للناس وأقاموا من الدليل ما تصاغرت دونه قوة المعارضة ثم ثبتت في الكون شرائعهم ثبات الغريزة في الفطر وكان الخير لأممهم في اتباع ما جاؤا به حالفتهم القوة واحتضنتهم السعادة ما كانوا قائمين عليها ورزأهم الضعف وغالبهم الشقاء ما انحرفوا عنها وخلطوا فيها فهذا وما أقاموه من الادلة عند التحدي لا يصح معه في العقل أن يكونوا كاذبين في حديثهم عن الله ولا في دعواهم أنه كان يوحى اليهم ما شرعوا للناس على أن من لا يعتقد ما يقول لا يبقى لمقاله أثر في العقول والباطل لا بقاء له الا في الغفلة عنه كالنبات الخبيث في الارض الطيبة ينبت باهمالها وينمو باغفالها فاذا لامستها عناية الزارع غلبه الخصب وذهب به الزكاء ولكن تلك الديانات التى جاء بها أولئك الانبياء قامت في العالم الانساني ما شاء الله مما قدر لها مقام سائر قواه مع كثرة المعارضين وقوة سلطان المغالبين فلا يمكن أن يكون

أسها الكذب ودعامتها الحيلة وكلامنا هذا في جوهرها الذي يلوح دائما في خلال ما ألحق بها المبتدعون أما بقية الرسل ممن يجب علينا الايمان بهم فيكفى في إثبات نبوتهم إثبات رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم فقد أخبرنا برسالتهم وهو الصادق فيما بلغ به وسنأتى على الكلام فى رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فى باب على حدته إن شاء الله

وظيفة الرسل عليهم السلام

تبين مما تقدم في حاجة العالم الانساني الى الرسل أنهم من الامم بمنزلة العقول من الاشخاص وأن بعثهم حاجة من حاجات العقول البشرية قضت رحمة المبدع الحكيم بسدادها ونعمة من نعم واهب الوجود ميز بها الانسان عن بقية الكائنات من جنسه ولكنها حاجة روحية وكل مالا مس الحس منها فالقصد فيه الى الروح وتطهيرها من دنس الاهواء الضالة أو تقويم ملكاتها أو إيداعها مافيه سعادتها فى الحياتين أما تفصيل طرق المعيشة والحذق فى وجوه الكسب وتطاول شهوات العقل الى درك ما أعد للوصول اليه من أسرار العلم فذلك مما لادخل للرسالات فيه إلا من وجه العظة العامة والارشاد الى الاعتدال فيه وتقرير أن شرط ذلك كله أن لا يحدث ريبا في الاعتقاد بأن للكون إلها واحدا قادرا عالما حكيما متصفا بما أوجب الدليل أن يتصف به وباستواء نسبة الكائنات

اليه في أنها مخلوقة له وصنع قدرته وانما تفاوتها فيما اختص به بعضها من الكمال وشرطه أن لا ينال شيء من تلك الاعمال السابقة أحدا من الناس بشر في نفسه أو عرضه أو ماله بغير حق يقتضيه نظام عامة الامة على ما حدد في شريعتها

يرشدون العقل الى معرفة الله وما يجب أن يعرف من صفاته ويبينون الحد الذي يجب أن يقف عنده في طلب ذلك العرفان على وجه لا يشق عليه الاطمئنان اليه ولا يرفع ثقته بما آتاه الله من القوة يجمعون كلمة الخلق على إله واحد لا فرقة معه ويخلون السبيل بينهم وبينه وحده وينهضون نفوسهم الى التعلق به في جميع الاعمال والمعاملات ويذكرونهم بعظمته بفرض ضروب من العبادات فيما اختلف من الاوقات تذكرة لمن ينسى وتزكية مستمرة لمن يخشى تقوى ما ضعف منهم وتزيد المستيقن يقينا

يبينون للناس ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم وتنازعته مصالحهم ولذاتهم فيفصلون في تلك المخاصمات بأمر الله الصادع ويؤيدون بما يبلغون عنه ما تقوم به المصالح العامة ولا تفوت به المنافع الخاصة يعودون بالناس الى الالفة ويكشفون لهم سر المحبة ويستلفتونهم الى أن فيها انتظام شمل الجماعة ويفرضون عليهم مجاهدة أنفسهم

ليستوطنوها قلوبهم ويشربوها أفئدتهم يعلمونهم لذلك أن يرعى كل حق الآخر وإن كان لا يغفل حقه وأن لا يتجاوز في الطلب حده وأن يعين قويهم ضعيفهم ويمد غنيهم فقيرهم ويهدي راشدهم ضالهم ويعلم عالمهم جاهلهم

يضعون لهم بأمر الله حدودا عامة يسهل عليهم أن يردوا اليها أعمالهم كاحترام الدماء البشرية الا بحق مع بيان الحق الذى تهدر له وحظر تناول شيء مما كسبه الغير الا بحق مع بيان الحق الذى يبيح تناوله واحترام الاعراض مع بيان ما يباح وما يحرم من الابضاع . ويشرعون لهم مع ذلك أن يقوموا أنفسهم بالملكات الفاضلة كالصدق والامانة والوفاء بالعقود والمحافظة على العهود والرحمة بالضعفاء والاقدام على نصيحة الاقوياء والاعتراف لكل مخلوق بحقه بلا استثناء يحملونهم على تحويل أهوائهم عن اللذائذ الفانية الى طلب الرغائب السامية آخذين في ذلك كله بطرف من الترغيب والترهيب والانذار والتبشير حسبما أمرهم الله جل شأنه

يفصلون في جميع ذلك للناس ما يؤهلهم لرضا الله عنهم وما يعرضهم لسخطه عليهم ثم يحيطون بيانهم بنبأ الدار الآخرة وما أعد الله فيها من الثواب وحسن العقبي لمن وقف عند حدوده وأخذ بأوامره وتجنب

الوقوع فى محاظيره يعلمونهم من أنباء الغيب ما أذن الله لعباده في العلم به مما الوصب على العقل اكتناهه لم يشق عليه الاعتراف بوجوده بهذا تطمئن النفوس وتثلج الصدور ويعتصم المرزوء بالصبر انتظارا لجزيل الاجر أو إرضاء لمن بيده الامر وبهذا ينحل أعظم مشكل فى الاجتماع الانساني لا يزال العقلاء يجهدون أنفسهم فى حله الى اليوم

ليس من وظائف الرسل ماهو من عمل المدرسين ومعلمي الصناعات فليس مما جاؤا له تعليم التاريخ ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب ولا بيان ما اختلف من حركاتها ولا ما استكن من طبقات الارض ولا مقادير الطول فيها والعرض ولا ما تحتاج اليه النباتات فى نموها ولا ما تفتقر اليه الحيوانات في بقاء أشخاصها وأنواعها وغير ذلك مما وضعت له العلوم وتسابقت فى الاصول الى دقائقه الفهوم فان ذلك كله من وسائل الكسب وتحصيل طرق الراحة هدى الله اليه البشر بما أودع فيهم من الادراك يزيد فى سعادة المحصلين ويقضي فيه بالنكد على المقصرين ولكن كانت سنة الله في ذلك أن يتبع طريقة التدرج في الكمال وقد جاءت شرائع الانبياء بما يحمل على الاجمال بالسعى فيه وما يكفل التزامه بالوصول الى ما أعد الله له الفطر الانسانية من مراتب الارتقاء

أما ما ورد فى كلام الانبياء من الاشارة الى شيء مما ذكرنا في أحوال

الافلاك أو هيئة الارض فانما يقصد منه النظر الى ما فيه من الدلالة على حكمة مبدعه أو توجيه الفكر الى الغوص لادراك أسراره و بدائعه ولغتهم عليهم الصلاة والسلام في مخاطبة أممهم لا يجوز أن تكون فوق ما يفهمون والا ضاعت الحكمة في ارسالهم ولهذا قد يأتي التعبير الذي سيق الى العامة بما يحتاج الى التأويل والتفسير عند الخاصة وكذلك ما وجه الى الخاصة يحتاج الى الزمان الطويل حتي يفهمه العامة وهذا القسم أقل ما ورد في كلامهم

على كل حال لا يجوز أن يقام الدين حاجزا بين الارواح وبين ما ميزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة بقدر الامكان بل يجب أن يكون الدين باعثا لها على طلب العرفان مطالبا لها باحترام البرهان فارضا عليها أن تبذل ما تستطيع من الجهد في معرفة ما بين يديها من العوالم ولكن مع التزام القصد والوقوف في سلامة الاعتقاد عند الحد ومن قال غير ذلك فقد جهل الدين وجنى عليه جناية لا يغفرها له رب الدين .

اعتراض مشهور

قال قائل ان كانت بعثة الرسل حاجة من حاجات البشر وكمالا لنظام اجتماعهم وطريقا لسعادتهم الدنيوية والاخروية فما بالهم لم يزالوا أشقياء

عن السعادة بعداء يتخالفون ولا يتفقون يتقاتلون ولا يتناصرون
يتناهبون ولا يتناصفون كل يستعد للوثبة ولا ينتظر الا مجيء النوبة
حشو جلودهم الظلم وملء قلوبهم الطمع عد أهل كل ذي دين دينهم
حجة لمقارعة من خالفهم فيه واتخذوا منه سببا جديدا للعداوة والعدوان
فوق ماكان من اختلاف المصالح والمنافع بل أهل الدين الواحد قد تنشق
عصاهم وتختلف مذاهبهم في فهمه وتتفارق عقولهم فى عقائدهم
ويثور بينهم غبار الشر وتتشبث أهواؤهم بالفتن فيسفكون دماءهم
ويخربون ديارهم الى أن يغلب قويهم ضعيفهم فيستقر الامر للقوة
لا للحق والدين فهاهو الدين الذى تقول إنه جامع الكلمة ورسول المحبة
كان سببا في الشقاق ومضرما للضغينة فما هذه الدعوى وما هذا الاثر

نقول في جوابه نعم كل ذلك قد كان ولكن بعد زمن الانبياء وانقضاء
عهدهم ووقوع الدين في أيدى من لا يفهمه أو يفهمه ويغلو فيه أو لا
يغلو فيه ولكن لم يمتزج حبه بقلبه أو امتزج بقلبه حب الدين ولكن
ضاقت سعة عقله عن تصريفه تصريف الانبياء انفسهم أو الخيرة من
تبعهم وإلا فقل لنا أي نبي لم يأت أمته بالخير الجم والفيض الأعم ولم
يكن دينه وافيا بجميع ما كانت تمس اليه حاجتها في أفرادها وجملتها

أظن أنك لا تخالفنا في أن الجمهور الاعظم من الناس بل الكل الا قليلا

لا يفهمون فلسفة أفلاطون ولا يقيسون أفكارهم وآراءهم بمنطق ارسطو بل لو عرض أقرب المعقولات الى المقول عليهم بأوضح عبارة يمكن أن يأتي بها معبر لما أدركوا منها إلا خيالا لا أثر له في تقويم النفس ولا في اصلاح العمل فاعتبر هذه الطبقات في حالها التي لا تفارقها من تلاعب الشهوات بها ثم انصب نفسك واعظا بينها في تخفيف بلاء سياقه النزاع اليها فأي الطرق أقرب اليك في مهاجمة شهواتهم وردّها الي الاعتدال في رغائبها من البديهي أنك لا تجد الطريق الاقرب في بيان مضارّ الاسراف في الرغب وفوائد القصد في الطلب وما نحو نحو ذلك مما لا يصل اليه أرباب العقول السامية الا بطويل النظر وانما تجد أقصد الطرق وأقومها أن تأتي اليه من نافذة الوجدان المطلة على سر القهر المحيط به من كل جانب فتذكره بقدرة الله الذى وهبه ما وهب الغالب عليه في أدنى شؤونه اليه المحيط بما في نفسه الآخذ بأزمة هممه وتسوق اليه من الامثال في ذلك مايقرب الى فهمه ثم تروى له ماجاء في الدين المعتقد به من مواعظ وعبر ومن سير السلف في ذلك الدين مافيه أسوة حسنة وتنعش روحه بذكر رضا الله اذا استقام وسخطه عليه اذا تقحم عند ذلك يخشع منه القلب وتدمع العين ويستخذى الغضب وتخمد الشهوة والسامع لم يفهم من ذلك كله الا

أنه يرضي الله وأولياءه اذا أطاع ويسخطهم اذا عصي ذلك هو المشهود من حال البشر غابرهم وحاضرهم ومنكره يسم نفسه أنه ليس منهم كم سمعنا أن عيونا بكت وزفرات صعدت وقلوبا خشعت لواعظ الدين . لكن هل سمعت بمثل ذلك بين يدى نصاح الادب وزعماء السياسة . متى سمعنا أن طبقة من طبقات الناس يغلب الخير على أعمالهم لما فيه من المنفعة لعامتهم أوخاصتهم وينفى الشر من بينهم لما يجلبه عليهم من مضار ومهالك هذا أمر لم يعهد في سير البشر ولا ينطبق على فطرهم وإنما قوام الملكات هو العقائد والتقاليد ولا قيام للامرين الا بالدين فعامل الدين هو أقوى العوامل فى أخلاق العامة بل والخاصة وسلطانه على نفوسهم أعلى من سلطان العقل الذى هو خاصة نوعهم

قلنا إن منزلة النبوات من الاجتماع هي منزلة العقل من الشخص أو منزلة العلم المنصوب على الطريق المسلوك بل نصعد الى مافوق ذلك ونقول منزلة السمع والبصر أليس من وظيفة الباصرة التمييز بين الحسن والقبيح من المناظر وبين الطريق السهلة السلوك والمعابر الوعرة ومع ذلك فقد يسىء البصير استعمال بصره فيتردّى في هاوية يهلك فيها وعيناه سليمتان تلمعان فى وجهه . يقع ذلك لطيش أو إهمال أو غفلة أو لجاج وعناد . وقد يقوم من العقل والحس ألف دليل على مضرّة شيء ويعلم ذلك الباغي فى

رأيه من أهل الشر ثم يخالف تلك الدلائل الظاهرة ويقتحم المكروه لقضاء شهوة اللجاج أو نحوها ولكن وقوع هذه الامثال لا ينقص من قدر الحس أو العقل فيما خلق لاجله . كذلك الرسل عليهم السلام أعلام هداية نصبها الله على سبيل النجاة فمن الناس من اهتدى بها فانتهى الى غايات السعادة ومنهم من غلط في فهمها أو انحرف عن هديها فانكب في مهاوي الشقاء فالدين هاد والنقص يعرض لمن دعوا الي الاهتداء به ولا يطعن نقصهم في كماله واشتداد حاجتهم اليه (يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به الا الفاسقين » ألا إن الدين مستقر السكينة ولجأ الطمأنينة به يرضى كل بما قسم له وبه يدأب عامل حتى يبلغ الغاية من عمله وبه تخضع النفوس الى أحكام السنن العامة في الكون وبه ينظر الانسان الى من فوقه في العلم والفضيلة والى من دونه في المال والجاه اتباعا لما وردت به الاوامر الالهية . الدين أشبه بالبواعث الفطرية الالهامية منه بالدواعي الاختيارية . الدين قوة من أعظم قوي البشر وانما قد يعرض عليها من العلل ما يعرض لغيرها من القوي وكل ماوجه الى الدين من مثل الاعتراض الذي نحن بصدده فتبعته في أعناق القائمين عليه الناصبين أنفسهم منصب الدعوة اليه أو المعروفين بأنهم حفظته ورعاة أحكامه وما عليهم

في ابلاغ القلوب بغيتها منـه الا أن يهتدوابه ويرجعوا به الى أصوله الطاهرة الاولى ويضعوا عنـه أوزار البدع فترجع اليـه قوته وتظهر للاعمى حكمته

وربما يقول قائل إن هذه المقابلة بين العقل والدين تميل الى رأي القائلـين باهمال العقل بالمرة في قضايا الدين وبان أساسه هو التسليم المحض وقطع الطريق على أشعة البصيرة أن تنفذ الى فهم ما أودعه من معارف وأحكام . فنقول لو كان الامر كما عساه أن يقال لما كان الدين علما يهتـدى به وانما الذى سبق تقريره هو أن العقل وحده لا يستقل بالوصول الى ما فيه سعادة الامم بدون مرشد الهى كما لا يستقل الحيوان فى درك جميع المحسوسات بحاسة البصر وحدها بل لا بد معها من السمع لادراك المسموعات مثلا كذلك الدين هو حاسة عامة لكشف ما يشتبه على العقل من وسائل السعادات والعقل هو صاحب السلطان فى معرفة تلك الحاسة وتصريفها فيما منحت لاجله والاذعان لما تكشف له من معتقدات وحـدود أعمـال كيف ينكر على العقل حقه في ذلك وهو الذي ينظر فى أدلتها ليصل منها الى معرفتها وانها آتية من قبل الله وانما على العقل بعد التصديق برسالة نبي أن يصدق بجميع ما جاء به وان لم يستطع الوصول الى كنه بعضه والنفوذ الى حقيقتـه ولا يقضي

عليه ذلك بقبول ماهو من باب المحال المؤدى الى مثل الجمع بين النقيضين أو بين الضدين في موضوع واحد في آن واحد فان ذلك مما تتنزه النبوات عن أن تأتي به فان جاء مايوهم ظاهره ذلك في شيء من الوارد فيها وجب على العقل أن يعتقد أن الظاهر غير مراد وله الخيار بعد ذلك في التأويل مسترشدا ببقية ماجاء على لسان من ورد المتشابه في كلامه وفى التفويض الى الله في علمه وفى سلفنا من الناجين من أخذ بالاول ومنهم من أخذ بالثانى

رسالة محمد صلى الله عليه وسلم

ليس من غرضنا فى هذه الوريقات أن نلم بتاريخ الامم عامة وتاريخ العرب خاصة في زمن البعثة المحمدية لنبين كيف كانت حاجة سكان الارض ماسة الى قارعة تهز عروش الملوك وتزلزل قواعد سلطانهم الغاشم وتخفض من أبصارهم المعقودة بعنان السماء الى من دونهم من رعاياهم الضعفاء والى نار تنقض من سماء الحق على أدم الانفس البشرية لتأكل ما اعشوشبت به من الاباطيل القاتلة للعقول وصيحة فصحى تزعج الغافلين وترجع بألباب الذاهلين وتنبه المرؤسين الى أنهم ليسوا بأبعد عن البشرية من الرؤساء الظالمين والهداة الضالين والقادة الغارين وبالجملة تؤب بهم الى رشد يقيم الانسان على الطريق

التي سنها الله له « انا هديناه السبيل » ليبلغ بسلوكها كماله ويصل
على نهجها الى ما أعد فى الدارين له ولكنا نستعير من التاريخ كلمة
يفهمها من نظر فيما اتفق عليه مؤرخو ذلك العهد نظر إمعان وإنصاف
كانت دولتا العالم دولة الفرس في الشرق ودلة الرومان في الغرب
فى تنازع وتجالد مستمر دماء بين العالمين مسفوكة وقوى منهوكة
وأموال هالكة وظلم من الاحن حالكة ومع ذلك فقد كان الزهو
والترف والاسراف والفخفخة والتفنن في الملاذ بالغة حدما لا يوصف فى
قصور السلاطين والامراء والقواد ورؤساء الاديان من كل أمة وكان
شره هذه الطبقة من الامم لا يقف عند حد فزادوا فى الضرائب وبالغوا
في فرض الاتاوات حتى أثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم وأتوا على ما في أيديها
من ثمرات أعمالها وانحصر سلطان القوي في اختطاف ما بيد الضعيف
وفكر العاقل في الاحتيال لسلب الغافل وتبع ذلك أن استولى على تلك
الشعوب ضروب من الفقر والذل والاستكانة والخوف والاضطراب
لفقد الأمن على الارواح والاموال

غمرت مشيئة الرؤساء ارادة من دونهم فعاد هؤلاء كأشباح اللاعب
يديرها من وراء حجاب ويظنها الناظر اليها من ذوى الالباب ففقد بذلك
الاستقلال الشخصي وظن أفراد الرعايا أنهم لم يخلقوا الا لخدمة ساداتهم

وتوفير لذاتهم كما هو الشأن في العجماوات مع من يقتنيها . ضلت السادات فى عقائدها وأهوائها وغلبتها على الحق والعدل شهواتها ولكن بقى لها من قوة الفكر أردأ بقاياها فلم يفارقها الحذر من أن بصيص النور الالهى الذي يخالط الفطر الانسانية قد يفتق الغلاف التى أحاطت بالقلوب ويمزق الحجب التى أسدلت على العقول فتهتدى العامة الى السبيل ويثور الجم الغفير على العدد القليل ولذلك لم يغفل الملوك والرؤساء أن ينشؤا سحبا من الاوهام ويؤكسفا من الاباطيل والخرافات ليقذفوا بها فى عقول العامة فيغلظ الحجاب ويعظم الرين ويختنق بذلك نور الفطرة ويتم لهم ما يريدون من المغلوبين لهم وصرح الدين بلسان رؤسائه أنه عدو العقل وعدو كل ما يثمره والنظر الى ما كان تفسير الكتاب مقدس وكان لهم في المشارب الوثنية ينابيع لا تنضب ومدد لا ينفد هذه حالة الاقوام كانت في معارفهم وذلك كان شأنهم في معايشهم عبيد أذلاء حيارى فى جهالة عمياء اللهم إلا بعض شوارد من بقايا الحكمة الماضية والشرائع السابقة آوت الى بعض الاذهان ومعها مقت الحاضر ونقص العلم بالغابر ثارت الشبهات على أصول العقائد وفروعها بما انقلب من الوضع وانعكس من الطبع فكان يرى الدنس في مظنة الطهارة والشره حيث تنتظر القناعة والدعارة

حيث ترجى السلامة والسلام مع قصور النظر عن معرفة السبب وانصرافه لاول وهلة الى أن مصدر كل ذلك هو الدين فاستولى الاضطراب على المدارك وذهب بالناس مذهب الفوضي في العقل والشريعة معا وظهرت مذاهب الاباحيين والدهريين في شعوب متعددة وكان ذلك ويلا عليها فوق ما رزئت به من سائر الخطوب

وكانت الامة العربية قبائل متخالفة في النزعات خاضعة للشهوات تفخر كل قبيلة فى قتال أختها وسفك دماء أبطالها وسبي نسائها وسلب أموالها تسوقها المطامع الى المعامع ويزين لها السيآت فساد الاعتقادات وقد بلغ العرب من سخافة العقل حدا صنعوا أصنامهم من الحلوى ثم عبدوها فلما جاعوا أكلوها وبلغوا من تضعضع الاخلاق وهنا قتلوا فيه بناتهم تخلصا من عار خياتهن أو تنصلا من نفقات معيشتهن وبلغ الفحش منهم مبلغا لم يعد معه للعفاف قيمة وبالجملة فكانت ربط النظام الاجتماعى قد تراخت عقدها فى كل أمة وانفصمت عراها عند كل طائفة

أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الاقوام أن يؤدبهم برجل منهم يوحي اليه رسالته ويمنحه عنايته ويمده من القوة بما يتمكن معه من كشف تلك الغمم التى أظلت رؤس جميع الامم نعم كان ذلك وله الامر من قبل

ومن بعد

في الليلة الثانية عشر من ربيع الاول عام الفيل « ٢٠ ابريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام » ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم القرشي بمكة ولد يتيما توفي والده قبل أن يولد ولم يترك له من المال الاخمس جمال وبعض نعاج وجارية ويروى أقل من ذلك وفي السنة السادسة من عمره فقد والدته أيضا فاحتضنه جده عبد المطلب وبعد سنتين من كفالته توفى جده فكفله من بعده عمه أبو طالب وكان شهما كريما غير أنه كان من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله وكان صلى الله عليه وسلم من بنى عمه وصبية قومه كاحدهم على ما به من يتم فقد فيه الابوين معا وفقر لم يسلم منه الكافل والمكفول ولم يقم على تربيته مهذب ولم يعن بتثقيفه مؤدب بين أتراب من نبت الجاهلية وعشراء من حلفاء الوثنية وأولياء من عبدة الاوهام وأقرباء من حفدة الاصنام غير أنه مع ذلك كان ينمو ويتكامل بدنا وعقلا وفضيلة وأدبا حتى عرف بين أهل مكة وهو في ريعان شبابه بالامين أدب الهي لم تجر العادة بأن تزين به نفوس الايتام من الفقراء خصوصا مع فقر القوام فاكتهل صلى الله عليه وسلم كاملا والقوم ناقصون رفيعا والناس منحطون موحدا وهم وثنيون سلما وهم شاغبون صحيح الاعتقاد وهم واهمون مطبوعا على

الخير وهم به جاهلون وعن سبيله عادلون

من السنن المعروفة أن يتيما فقيرا أميامثله تنطبع نفسه بماتراه من أول نشأته الى زمن كهولته ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه لا سيما ان كان من ذوى قرابته وأهل عصبته ولا كتاب يرشده ولا استاذ ينبهه ولا عضد اذا عزم يؤيده فلو جري الامر فيه على جارى السنن لنشأ على عقائدهم وأخذ بمذاهبهم الى أن يبلغ مبلغ الرجال ويكون للفكر والنظر مجال فيرجع الى مخالفتهم اذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم كما فعل القليل ممن كانوا على عهده ولكن الامر لم يجر على سنته بل بغضت اليه الوثنية من مبدإ عمره فعاجلته طهارة العقيدة كما بادره حسن الخليقة وماجاء في الكتاب من قوله « ووجدك ضالا فهدى » لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء الى التوحيد أو على غير السبيل القويم قبل الخلق العظيم حاش لله إن ذلك لهو الافك المبين وانما هي الحيرة تلم بقلوب أهل الاخلاص فيما يرجون للناس من الخلاص وطلب السبيل الى ماهدوا اليه من انقاذ الهالكين وإرشاد الضالين وقد هدى الله نبيه الى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته

وجد شيأ من المال يسد حاجته « وقد كان له في الاستزادة منه ما يرفه

معيشته » بما عمل لخديجة رضي الله عنها في تجارتها وبما اختارته بعد ذلك زوجا لها وكان فيما يجتنيه من ثمرة عمله غناء له وعون على بلوغه ما كان عليه أعاظم قومه لكنه لم ترفه الدنيا ولم تغره زخارفها ولم يسلك ما كان يسالكه مثله في الوصول الى ماترغبه الانفس من نعيمها بل كلما تقدم به السن زادت فيه الرغبة عما كان عليه الكافة ونما فيه حب الانفراد والانقطاع الى الفكر والمراقبة والتحنث بمناجاة الله تعالى والتوسل اليه في طلب المخرج من همه الاعظم في تخليص قومه ونجاة العالم من الشر الذي تولاه الى أن انفتق له الحجاب عن عالم كان يحثه اليه الالهام الالهى وتجلى عليه النور القدسي وهبط عليه الوحى من المقام العلى فى تفصيل ليس هذا موضعه

لم يكن من آبائه ملك فيطالب بما سلب من ملكه وكانت نفوس قومه فى انصراف تام عن طلب مناصب السلطان وفي قناعة بما وجدوه من شرف النسبة الى المكان دل عليهما مافعل جده عبدالمطلب عند زحف أبرهة الحبشي على ديارهم . جاء الحبشي لينتقم من العرب بهدم معبدهم العام وبيتهم الحرام ومنتجع حجيجهم ومستوى العلية من آلهتهم ومنتهى حجة القرشيين في مفاخرتهم لبنى قومهم وتقدم بعض جنده فاستاق عددا من الابل فيها لعبد المطلب مائتا بعير وخرج

عبد المطلب في بعض قريش لمقابلة الملك فاستدناه وسأله حاجته فقال هي أن ترد الي مائتي بعير أصبتها لى فلامه الملك على المطلب الحقير وقت الخطب الخطير فأجابه أنارب الابل أما البيت فله رب يحميه هـذا غاية ماينتهي اليه الاستسلام وعبـد المطلب في مكانه من الرياسة على قريش فأين من تلك المكانة محمد صلى الله عليـه وسلم في حاله من الفقر ومقامه في الوسط من طبقات أهله حتى ينتجع ملكا أو يطلب سلطانا لامال لا جاه لا جند لا أعوان لا سليقة في الشعر لا براعة فى الكتاب لا شهرة فى الخطاب لا شئ كان عنده مما يكسب المكانة في نفوس العامة أو يرقى به الى مقام ما بين الخاصة ماهذا الذى رفع نفسه فوق النفوس ما الذى أعلى رأسـه على الرؤس ما الذي سما بهمتـه على الهمم حتى انتدب نفسه لارشاد الامم وكفالتـه لهم كشف الغمم بل وإحياء الرمم ماكان ذلك الاما القى الله فى روعه من حاجة العالم الى مقوم لما زاغ من عائدهم ومصلح لما فسد من أخلاقهم وعوائدهم ماكان ذلك الا وجدانه ريح العناية الالهية ينصره في عمله ويمده في الانتهاء الى أمله قبـل بلوغ أجله ماهو الا الوحي الالهى يسعى نوره بين يديه يضيء له السبيل ويكفيه مؤنة الدليل ماهو إلا الوعد السماوي قام لديه مقام القائد والجندي أرأيت كيف نهض وحيـدا فريدا يدعو النـاس كافة الى

التوحيد والاعتقاد بالعلي المجيد والكل مابين وثنية متفرقة ودهرية وزندقة نادي في الوثنيين بترك أوثانهم ونبذ معبوداتهم وفي المشبهين المنغمسين في الخلط بين اللاهوت الأقدس وبين الجسمانيات بالتطهر من تشبيههم وفى الثانوية بافراد إله واحد بالتصرف فى الاكوان ورد كل شيء فى الوجود اليه أهاب بالطبيعيين ليمدوا بصائرهم الى ما وراء حجاب الطبيعة فيتنوروا اسرار الوجود الذي قامت به صاح بذوى الزعامة ليهبطوا الى مصاف العامة في الاستكانة الى سلطان معبود واحد هو فاطر السموات والارض والقابض على أرواحهم فى هياكل أجسادهم . تناول المنتحلين منهم لمرتبة التوسط بين العباد وبين ربهم الأعلى فبين لهم بالدليل وكشف لهم بنور الوحى أن نسبة أكبرهم الى الله كنسبة أصغر المعتقدين بهم وطالبهم بالنزول عما انتحلوه لانفسهم من المكانات الربانية الي أدني سلم من العبودية والاشتراك مع كل ذي نفس إنسانية في الاستعانة برب واحد يستوي جميع الخلق في النسبة اليه لا يتفاوتون الا فيما فضل به بعضهم على بعض من علم أوفضيلة وخز بوعظه عبيد العادات وأسراء التقليد ليعتقوا أرواحهم مما استعبدوا له ويحلوا أغلالهم التى أخذت بأيديهم عن العمل وقطعتهم دون الامل مال على قراء الكتب السماوية والقائمين على ما أودعته من الشرائع الالهية

فبكت الواقفين عند حروفها بغباوتهم وشدد النكير على المحرفين لها الصارفين لالفاظها الى غير ماقصد من وحيها اتباعا لشهواتهم ودناهم الى فهمها والتحقق بسر علمها حتي يكونوا على نور من ربهم واستلفت كل إنسان الى ماأودع فيه من المواهب الالهية ودعا الناس أجمعين ذكورا واناثا عامة وسادات الى عرفان أنفسهم وأنهم من نوع خصه الله بالعقل وميزه بالفكر وشرفه بهما وبحرية الارادة فيما يرشده اليه عقله وفكره وأن الله عرض عليهم جميع مابين أيديهم من الاكوان وسلطهم على فهمها والانتفاع بها بدون شرط ولا قيد الا الاعتدال والوقوف عند حدود الشريعة العادلة والفضيلة الكاملة وأقدرهم بذلك على أن يصلوا الى معرفة خالقهم بعقولهم وأفكارهم بدون واسطة أحد إلا من خصهم الله بوحيه وقد وكل اليهم معرفتهم بالدليل كما كان الشأن فى معرفتهم لمبدع الكائنات أجمع والحاجة الى أولئك المصطفين إنما هو فى معرفة الصفات التى أذن الله أن تعلم منه وليست فى الاعتقاد بوجوده وقرر أن لا سلطان لاحد من البشر على آخر منه الا ما رسمته الشريعة وفرضه العدل ثم الانسان بعد ذلك يذهب بارادته الى ماسخرت له بمقتضى الفطرة . دعا الانسان الى معرفة أنه جسم وروح وأنه بذلك من عالمين متخالفين وان كانا ممتزجين وأنه مطالب بخدمتهما جميعا

وايفاء كل منهما ماقررت له الحكمة الالهية من الحق . دعا الناس كافة الى الاستعداد فى هذه الحياة لما سيلاقون فى الحياة الاخري وبين لهم أن خير زاد يتزوده العامل هو الاخلاص لله في العبادة والاخلاص للعباد في العدل والنصيحة والارشاد

قام بهذه الدعوة العظمى وحده ولا حول له ولا قوة كل هذا كان منه والناس أحباء ما ألفوا وان كان خسران الدنيا وحرمان الآخرة أعداء ماجهلوا وان كان رغد العيش وعزة السيادة ومنتهى السعادة كل هذا والقوم حواليه أعداء أنفسهم وعبيد شهواتهم لا يفقهون دعوته ولا يعقلون رسالته عقدت أهداب بصائر العامة منهم باهواء الخاصة وحجبت عقول الخاصة بغرور العزة عن النظر في دعوى فقير أمى مثله لا يرون فيه ما يرفعه الى نصيحتهم والتطاول الى مقاماتهم الرفيعة باللوم والتعنيف

لكنه في فقره وضعفه كان يقارعهم بالحجة ويناضلهم بالدليل ويأخذهم بالنصيحة ويزعجهم بالزجر وينبههم للعبر ويحوطهم مع ذلك بالموعظة الحسنة كأنما هو سلطان قاهر فى حكمه عادل في أمره ونهيه أو أب حكيم في تربية أبنائه شديد الحرص على مصالحهم رؤف بهم فى شدته رحيم فى سلطته . ماهذه القوة فى ذلك الضعف ماهذا السلطان في مظنة

العجز ماهذا العلم فى تلك الامية ماهذا الرشاد فى غمرات الجاهلية . إن هو الا خطاب الجبروت الاعلى قارعة القدرة العظمى نداء العناية العليا ذلك خطاب الله القادر على كل شئ الذي وسع كل شيء رحمة وعلما . ذلك أمر الله الصادع يقرع الآذان ويشق الحجب ويمزق الغلف وينفذ الى القلوب على لسان من اختاره لينطق به واختصه بذلك وهو أضعف قومه ليقيم من هذا الاختصاص برهانا عليه بعيدا عن الظنة بريأ من التهمة لاتيانه على غير المعتاد بين خلقه . أى برهان على النبوة أعظم من هذا أمى قام يدعو الكاتبين الى فهم ما يكتبون وما يقرؤن بعيد عن مدارس العلم صاح بالعلماء ليمحصوا ما كانوا يعلمون . في ناحية عن ينابيع العرفان جاء يرشد العرفاء ناشئ بين الواهمين هب لتقويم عوج الحكماء . غريب في أقرب الشعوب الى سذاجة الطبيعة وأبعدها عن فهم نظام الخليقة والنظر فى سننه البديعة أخذ يقرر للعالم أجمع أصول الشريعة ويخط للسعادة طرقا لن يهلك سالكها ولن يخلص تاركها ما هذا الخطاب المفحم ما ذلك الدليل الملجم . أأقول ماهذا بشرا إن هذا الا ملك كريم لا لا أقول ذلك ولكن أقول كما أمره الله أن يصف نفسه إن هو الا بشر مثلكم يوحى اليه . نبي صدق الانبياء ولكن لم يأت في الاقناع برسالته بما يلهى الابصار أو يحير

الحواس أو يدهش المشاعر ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له واختص العقل بالخطاب وحاكم اليه الخطأ والصواب وجعل في قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة وآية الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد

القرآن

جاءنا الخبر المتواتر الذى لا تتطرق اليه الريبة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في نشأته وأميته على الحال التى ذكرنا وتواترت أخبار الامم كافة على أنه جاء بكتاب قال انه أنزل عليه وان ذلك الكتاب هو القرآن المكتوب في المصاحف المحفوظ في صدور من عنى بحفظه من المسلمين الى اليوم . كتاب حوى من أخبار الامم الماضية ما فيه معتبر للاجيال الحاضرة والمستقبلة نقب على الصحيح منها وغادر الاباطيل التى ألحقتها الاوهام بها ونبه على وجوه العبرة فيها حكى عن الانبياء ما شاء الله أن يقص علينا من سيرهم وما كان بينهم وبين أممهم وبرأهم مما رماهم به أهل دينهم المعتقدون برسالتهم آخذ العلماء من الملل المختلفة على ما أفسدوا من عقائدهم وما خلطوا في أحكامهم وما حرفوا بالتأويل في كتبهم . وشرع للناس أحكاما تنطبق على مصالحهم وظهرت الفائدة في العمل

بها والمحافظة عليها وقام بها العدل وانتظم بها شمل الجماعة ما كانت عند حد ما قرره ثم عظمت المضرة فى إهمالها والانحراف عنها أو البعد بها عن الروح الذى أودعته ففاقت بذلك جميع الشرائع الوضعية كما يتبين للناظر فى شرائع الامم ثم جاء بعد ذلك بحكم ومواعظ وآداب تخشع لها القلوب وتهش لاستقبالها العقول وتنصرف وراءها الهمم انصرافها في السبيل الامم . نزل القرآن في عصر اتفق الرواة وتواترت الاخبار على أنه أرقى الاعصار عند العرب وأغزرها مادة في الفصاحة وأنه الممتاز بين جميع ما تقدمه بوفرة رجال البلاغة وفرسان الخطاب وأنفس ما كانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل ونتائج الفطنة والذكاء هو الغلب فى القول والسبق الى إصابة مكان الوجدان من القلوب ومقر الاذعان من العقول وتفانيهم في المفاخرة بذلك مما لا يحتاج الى الاطالة فى بيانه

تواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحرص على معارضة النبي صلى الله عليه وسلم والتماسهم الوسائل قريبها وبعيدها لابطال دعواه وتكذيبه فى الاخبار عن الله وانيانهم فى ذلك على مبلغ استطاعتهم وكان فيهم الملوك الذين تحملهم عزة الملك على معاندته والامراء الذين يدعوهم السلطان الى مناوأته والخطباء والشعراء والكتاب الذين يشمخون

بأنوفهم عن متابعته وقد اشتد جميع أولئك فى مقاومته وانهالوا بقواهم عليه استكبارا عن الخضوع له وتمسكا بما كانوا عليه من أديان آبائهم وحمية لعقائدهم وعقائد أسلافهم وهو مع ذلك يخطئ آراءهم ويسفه أحلامهم ويحتقر أصنامهم ويدعوهم الى مالم تعهده أيامهم ولم تخفق لمثله أعلامهم ولا حجة له بين يدي ذلك كله إلا تحديهم بالاتيان بمثل أقصر سورة من ذلك الكتاب أو بعشر سور من مثله وكان فى استطاعتهم أن يجمعوا اليه من العلماء والفصحاء البلغاء ماشاؤا ليأتوا بشيء من مثل ماأتى به ليبطلوا الحجة ويفحموا صاحب الدعوة.

جاءنا الخبر المتواتر أنه مع طول زمن التحدي ولجاج القوم فى التحدي أصيبوا بالعجز ورجعوا بالخيبة وحقت للكتاب العزيز الكلمة العليا على كل كلام وقضى حكمه العلي على جميع الاحكام • أليس فى ظهور مثل هذا الكتاب على لسان أمي أعظم معجزة وأدل برهان على أنه ليس من صنع البشر وانما هو النور المنبعث عن شمس العلم الالهي والحكم الصادر عن المقام الرباني على لسان الرسول الامي صلوات الله عليه

هذا وقد جاء في الكتاب من أخبار الغيب ماصدقته حوادث الكون كالخبر فى قوله غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين وكالوعد الصريح في قوله وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا

الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم الآية وقد تحقق جميع ذلك وفى القرآن كثير من مثل هذا يحيط به من يتلوه حق تلاوته . ومن الكلام عن الغيب فيه ماجاء في تحدى العرب به واكتفائه فى الرجوع عن دعواه بأن يأتوا بسورة من مثله مع سعة البلاد العربية ووفرة سكانها وتباعد أطرافها وانتشار دعوته على لسان الوافدين الى مكة من جميع أرجائها ومع أنه لم يسبق له صلى الله عليه وسلم السياحة فى نواحيها والتعرف برجالها وقصور العلم البشري عادة عن الاحاطة بما أودع فى قوى أمة عظيمة كالامة العربية فهذا القضاء الحاتم منه بأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بشيء من مثل ماتحداهم به ليس قضاء بشريا ومن الصعب بل من المتعذر أن يصدر عن عاقل التزام كالذى التزمه وشرط كالذى شرطه على نفسه لغلبة الظن عند من له شيء من العقل أن الارض لاتخلو من صاحب قوة مثل قوته وانما ذاك هو الله المتكلم والعليم الخبير هو الناطق على لسانه وقد أحاط علمه بقصور جميع القوى عن تناول ما استنهضهم له وبلوغ ماحثهم عليه

يقول واهم إن العجز حجة على من عجز فان العجز هى حجة الافحام وإلزام الخصم وقد يلتزم الخصم ببعض المسلمات عنده فيفحم ويعجز عن الجواب فتلزمه الحجة ولكن ليس ذلك بملزم لغيره فمن الممكن أن لا يسلم غيره

سلمه فلايفحمه الدليل بل يجد الى ابطاله أقرب سبيل

وهو وهم يضمحل بما قدمناه من البيان اذ لا يوجد من المشابهة بين إعجاز القرآن وإفحام الدليل الا أنه يوجد عن كل منهما عجز وشتان بين العجزين وبعد ما بين وجهتي الاستدلال فيهما فان إعجاز القرآن برهن على أمر واقعي وهو تقاصر القوى البشرية دون مكانته من البلاغة وقلنا القوى البشرية لأنه جاء بلسان عربي وقد عرف الكتاب عند جميع العرب في عهد النبوة وكان حال العصر من البلاغة كما ذكرنا وحال القوم في العناد كما بينا ومع ذلك لم يمكن للعرب أن يعارضوه بشيء من مبلغ عقولهم فلا يعقل أن فارسيا أو هنديا أو رومانيا يبلغ من قوة البلاغة في العربية أن يأتي بما عجز عنه العرب أنفسهم وتقاصر القوى جميعها عن ذلك مع التماثل بين النبي وبينهم في النشأة والتربية وامتياز الكثير منهم بالعلم والدراسة دليل قاطع على أن الكلام ليس مما اعتيد صدوره عن البشر فهو اختصاص من الله سبحانه لمن جاء على لسانه ثم ما ورد في القرآن من تسجيل العجز عليهم والتعرض للاصطدام بجميع ما أوتوا من قوة مما يدل على الثقة من أمره مع ما سبق تعداده من الامور التي لا يمكن معها لعاقل أن يقف ذلك الموقف مع طول الزمن وانفساح الاجل كل ذلك يدل على أن الناطق هو عالم الغيب والشهادة لا رجل يعظ

وينصح على المادة

فثبت بهذه المعجزة العظمى وقام الدليل بهذا الكتاب الباقي الذى لا يعرض عليه التغيير ولا يتناوله التبديل أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله الى خلقه فيجب التصديق برسالته والاعتقاد بجميع ما ورد في الكتاب المنزل عليه والاخذ بكل ماثبت عنه من هدى وسنة متبعة وقد جاء في الكتاب أنه خاتم الانبياء فوجب علينا الايمان بذلك كذلك

بقى علينا أن نشير الى وظيفة الدين الاسلامي وما دعا اليه على وجه الاجمال وكيف انتشرت دعوته بالسرعة المعروفة والسر فى كون النبي صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين

الدين الاسلامى أو الاسلام

هو الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وعقله من وعاه عنه من صحابته ومن عاصرهم وجرى العمل عليه حينا من الزمن بينهم بلا خلاف ولا اعتساف فى التأويل ولا ميل مع الشيع وإنى مجمله فى هذا الباب مقتديا بالكتاب المجيد في التفويض لذوى البصائر أن يفصلوه وما سندى فيما أقول الا الكتاب والسنة القويمة وهدى الراشدين

جاء الدين الاسلامي بتوحيد الله تعالى في ذاته وأفعاله وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين فأقام الادلة على أن للكون خالقا واحدا متصفا بما دلت عليه آثار

صنعه من الصفات العلية كالعلم والقدرة والارادة وغيرها وعلى أنه
لا يشبهه شيء من خلقه وأن لا نسبة بينه وبينهم الا أنه موجدهم وأنهم له
واليه راجعون « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا
أحد » وما ورد من ألفاظ الوجه واليدين والاستواء ونحوها له معان عرفها
العرب المخاطبون بالكتاب ولم يشتبهوا في شيء منها وان ذاته وصفاته
يستحيل عليها أن تبرز في جسد أو روح أحد من العالمين وانما يختص
سبحانه من شاء من عباده بما شاء من علم وسلطان على ما يريد أن يسلطه عليه
من الاعمال على سنة له في ذلك سنها في علمه الازلي الذي لا يعتريه التبديل
ولا يدنو منه التغيير وحظر على كل ذي عقل أن يعترف لأحد بشيء من
ذلك إلا ببرهان ينتهي في مقدماته إلى حكم الحس وما جاوره من البديهيات
التي لا تنقص عنه في الوضوح بل قد تعلوه كاستحالة الجمع بين النقيضين
أو ارتفاعهما معا ووجوب أن الكل أعظم من الجزء مثلا وقضى على
هؤلاء كغيرهم بأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا وغاية أمرهم أنهم
عباد مكرمون وأن ما يجريه على أيديهم فانما هو باذن خاص وبتيسير
خاص في موضع خاص لحكمة خاصة ولا يعرف شأن الله في شيء من
هذا الا ببرهان كما تقدم

دل هذا الدين بمثل قول الكتاب « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم

لا تعلمون شيأ وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون »
والشكر عند العرب معروف أنه تصريف النعمة فيما كان الانعام بها
لاجله دل بمثل هذا على أن الله وهبنا من الحواس وغرز فينا من القوى
ماننصرفه في وجوهه بمحض تلك الموهبة فكل شخص كاسب لعمله بنفسه
لها أو عليها وأما ماتحير فيه مداركنا وتقصر دونه قوانا وتشعر فيه
أنفسنا بسلطان يقهرها أو ناصر يمدها فيما أدركها العجز عنه على أنه فوق
ماتعرف من القوي المسخرة لها وكان لابد من الخضوع له والرجوع اليه
والاستعانة به فذلك إنما يرد الى الله وحده فلا يجوز أن تخشع إلا له ولا
أن تطمئن إلا إليه وكذلك جعل شأنها فيما تخافه وترجوه مما تقبل عليه
فى الحياة الآخرة لا يسوغ لها أن تلجأ الى أحد غير الله فى قبول أعمالها
من الطيبات ولا فى غفران أفاعيلها من السيئات فهو وحده مالك يوم
الدين

جتثت بذلك جذور الوثنية وماوليها مما لو اختلف عنها فى الصورة
والشكل أو العبارة واللفظ لم يختلف عنها فى المعنى والحقيقة تبع هذا
طهارة العقول من الاوهام الفاسدة التى لا تنفك عن تلك العقيدة الباطلة
ثم تنزه النفوس عن الملكات السيئة التى كانت تلازم تلك الاوهام
وتخلصت بتلك الطهارة من الاختلاف فى المعبودين وعليهم وارتفع شأن

الانسان وسمت قيمته بما صار اليه من الكرامة بحيث أصبح لا يخضع لاحد إلا لخالق السموات والارض وقاهر الناس أجمعين وأبيح لكل أحد بل فرض عليه أن يقول كما قال إبراهيم « اني وجهت وجهى للذي فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين » وكما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول « ان صلاتي ونسكى ومحياى ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين »

نجات بذلك الانسان نفسه حرة كريمة وأطلقت ارادته من القيود التي كانت تعقدها بارادة غيره سواء كانت ارادة بشرية ظن أنها شعبة من الارادة الالهية أو أنها هي كارادة الرؤساء والمسيطرين أو إرادة موهومة اخترعها الخيال كما يظن فى القبور والاحجار والاشجار والكواكب ونحوها وافتكت عزيمته من أسر الوسائط والشفعاء والمتكهنة والعرفاء وزعماء السيطرة على الاسرار ومنتحلى حق الولاية على أعمال العبد فيما بينه وبين الله الزاعمين وأنهم واسطة النجاة وبأيديهم الاشقاء والاسعاد وبالجملة فقد أعتقت روحه من العبودية للمحتالين والدجالين صار الانسان بالتوحيد عبد الله خاصة حرا من العبودية لكل ماسواه فكان له من الحق ما للحر على الحر لا على فى الحق ولا وضيع ولا سافل ولا رفيع ولا تفاوت بين الناس إلا بتفاوت أعمالهم ولا تفاضل الا بتفاضلهم في

عقولهم ومعارفهم ولا يقربهم من الله الا طهارة العقل من دنس الوهم وخلوص العمل من العوج والرياء ثم بهذا خاصت أموال الكاسبين وتمحض الحق فيها للفقراء والمساكين والمصالح العامة وكفت عنها أيدى العالة وأهل البطالة ممن كان يزعم الحق فيها بصفته ورتبته لا بعمله وخدمته

طالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه وقرر أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » « وأن ليس للانسان الا ما سعى » وأباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ماشاء أكلا وشربا ولباسا وزينة ولم يحظر عليه الا ما كان ضارا بنفسه أو بمن يدخل فى ولايته أو ما تعدى ضرره الى غيره وحدد له في ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة فكفل الاستقلال لكل شخص فى عمله واتسع المجال لتسابق الهمم فى السعى حتى لم يعد لها عقبة تتعثر بها اللهم الا حقا محترما تصطدم به

أنحى الاسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس واقتلعت أصوله الراسخة فى المدارك ونسفت ما كان له من دعائم وأركان فى عقائد الامم صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها كلما نفذ اليه

شعاع من نور الحق خلصت اليه هيمنة من سدنة هياكل الوهم « ثم فان الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والراحلة كليلة والازواد قليلة » علا صوت الاسلام على وساوس الطغام وجهر بأن الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ولكنه فطر على أن يهتدي بالعلم والاعلام أعلام الكون ودلائل الحوادث وانما المعلمون منبهون ومرشدون والى طرق البحث هادون صرح في وصف أهل الحق بانهم « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين ليأخذوا ما عرفوا حسنه ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستوي كانوا فيه يأمرون وينهون ووضعهم تحت أنظار مرؤسيهم يخبرونهم كما يشاؤن ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الابناء وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ونبه على أن السبق في الزمان ليس آية من آيات العرفان ولا مسميا لعقول على عقول ولا لأذهان على أذهان وانما السابق واللاحق في التمييز والفطرة سيان بل للاحق من علم الاحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل اليه من آثارها في الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه

وقد يكون من تلك الآثار التى ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لاعمال من سبقهم وطغيان الشر الذي وصل اليهم بما اقترفه سلفهم « قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » وان أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب ورحمته التى وسعت كل شيء لن تضيق عن دائب عاب أرباب الاديان فى اقتفائهم أثر آبائهم ووقوفهم عند ما اختطته لهم سير أسلافهم وقولهم « بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا » « انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون »

فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ماكان قيده وخلصه من كل تقليد كان استعبده ورده الى مملكته يقضي فيها بحكمه وحكمته مع الخضوع مع ذلك لله وحده والوقوف عند شريعته ولا حد للعمل فى منطقة حدودها ولا نهاية للنظر يمتد تحت بنودها

بهذا وما سبقه تم للانسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما وهما استقلال الارادة واستقلال الرأي والفكر وبهما كملت له انسانيته واستعد لان يبلغ من السعادة ماهيأه الله له بحكم الفطرة التى فطر عليها وقد قال بعض حكماء الغربيين من متأخريهم ان نشأة المدنية فى أوروبا انما قامت على هذين الاصلين فلم تنهض النفوس للعمل ولم تتحرك العقول للبحث والنظر الابعد أن عرف العدد الكثير أنفسهم وأن لهم حقافي

تصريف اختيارهم وفى طلب الحقائق بعقولهم ولم يصل اليهم هذا النوع من العرفان الا فى الجيل السادس عشر من ميلاد المسيح وقرر ذلك الحكيم انه شعاع سطع عليهم من آداب الاسلام ومعارف المحققين من أهله في تلك الازمان

رفع الاسلام بكتابه المنزل ماكان قد وضعه رؤساء الاديان من الحجر على عقول المتدينين فى فهم الكتب السماوية استئثارا من أولئك الرؤساء بحق الفهم لانفسهم وضنا به على كل من لم يلبس لباسهم ولم يسلك مسالكهم لنيل تلك الرتب المقدسة ففرضوا على العامة أو أباحوا لهم أن يقرؤا قطعا من تلك الكتب لكن على شريطة أن لا يفهموها ولا أن يطيلوا أنظارهم الى ماترمي اليه ثم غالوا فى ذلك فحرموا أنفسهم أيضا مزية الفهم الا قليلا ورموا عقولهم بالقصور عن ادراك ماجاء فى الشرائع والنبوات ووقفوا كما وقفوا بالناس عند تلاوة الالفاظ تعبدا بالاصوات والحروف فذهبوا بحكمة الارسال فجاء القرآن يلبسهم عار مافعلوا فقال « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أماني وان هم الا يظنون » « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين » أما الامانى ففسرت بالقرآآت والتلاوات أى لا يعلمون منه الا أن يتلوه واذا ظنوا أنهم على شيء مما دعا

اليه فهو عن غير علم بما أودعه وبلا برهان على ماتخيلوه عقيدة وظنوه دينا واذا عن لاحدهم أن يبين شيأ من أحكامه ومقاصده لشهوة دفعته الى ذلك جاء فيما يقول بما ليس منه على بينة واعتسف فى التأويل وقال هذا من عند الله «فويل للذين يكتبون الكتاب بايديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا» أما الذين قال انهم لم يحملوا التوراة وهي بين أيديهم بعد ما حملوها فهم الذين لم يعرفوا منها الا الالفاظ ولم تسم عقولهم الى درك ما أودعته من الشرائع والاحكام فعميت عليهم بذلك طرق الاهتداء بها وطمست عن أعينهم أعلام الهداية التى نصبت بانزالها فحق عليهم ذلك المثل الذي أظهر شأنهم فيما لا يليق بنفس بشرية أن تظهر به مثل الحمار الذى يحمل الكتب ولا يستفيد من حملها الا العناء والتعب وقصم الظهر وانبهار النفس وما أشنع شأن قوم انقلبت بهم الحال فما كان سببا في إسعادهم وهو التنزيل والشريعة أصبح سببا فى شقائهم بالجهل والغباوة وبهذا التقريع ونحوه وبالدعوة العامة الى الفهم وتمحيص الالباب للتفقه واليقين مما هو منتشر فى القرآن العزيز فرض الاسلام على كل ذى دين أن يأخذ بحظه من علم ما أودع الله فى كتبه وما قرر من شرعه وجعل الناس فى ذلك سواء بعد استيفاء الشرط باعداد مالا بد منه للفهم وهو سهل المنال على الجمهور الاعظم من المتدينين

لاتختص به طبقة من الطبقات ولا يحتكر مزيته وقت من الاوقات جاء الاسلام والناس شيع فى الدين وان كانوا إلا قليلا فى جانب عن اليقين يتنابذون ويتلاعنون ويزعمون في ذلك أنهم بحبل الله مستمسكون فرقة وتخالف وشغب يظنونها في سبيل الله أقوي سبب أنكر الاسلام ذلك كله وصرح تصريحا لا يحتمل الريبة بان دين الله في جميع الازمان وعلى ألسن جميع الانبياء واحد قال الله « ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم » « ماكان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وماكان من المشركين » « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذي أوحينا اليك وماوصينا به ابرهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ماتدعوهم اليه » « قل ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيأ ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » وكثير من ذلك يطول ايراده فى هذه الوريقات والآيات الكريمة التى تعيب على أهل الدين مانزعوا اليه من الاختلاف والمشاقة مع ظهور الحجة واستقامة المحجة لهم فى علم ما اختلفوا فيه معروفة لكل من قرأ القرآن وتلاه حق تلاوته نص الكتاب على أن دين الله فى جميع الازمان هو إفراده

بالربوبية والاستسلام له وحده بالعبودية وطاعته فيما أمر به ونهى عنه مما هو مصلحة للبشر وعماد لسعادتهم في الدنيا والآخرة وقد ضمنه كتبه التي أنزلها على المصطفين من رسله ودعا العقول الى فهمه منه والعزائم الى العمل به وان هذا المعنى من الدين هو الاصل الذي يرجع اليه عند هبوب ريح التخالف وهو الميزان الذي توزن به الاقوال عند التناصف وان اللجاج والمراء في الجدل فراق مع الدين وبعد عن سنته ومتى روعيت حكمته ولوحظ جانب العناية الالهية في الانعام على البشر به ذهب الخلاف وتراجعت القلوب الى هداها وسار الكافة في مراشدهم اخوانا بالحق مستمسكين وعلى نصرته متعاونين

أما صور العبادات وضروب الاحتفالات مما اختلفت فيه الاديان الصحيحة سابقها مع لاحقها واختلاف الاحكام متقدمها مع متأخرها فصدره رحمة الله ورأفته في اعطاء كل أمة وكل زمان ما علم فيه الخير للامة والملاءمة للزمان وكما جرت سنته وهو رب العالمين بالتدريج في تربية الاشخاص من خارج من بطن أمه لا يعلم شيأ الى راشد في عقله كامل في نشأته يمزق الحجب بفكره ويواصل أسرار الكون بنظره كذلك لم تختلف سنته ولم يضطرب هديه في تربية الامم فلم يكن من شأن الانسان في جملته ونوعه أن يكون في مرتبة واحدة من العلم وقبول الخطاب من

يوم خلقه الله الى يوم يبلغ به من الكمال منتهاه بل سبق القضاء بان يكون شأن جماته فى النمو قائما على ماقررته الفطرة الالهية فى شأن أفراده وهذا من البديهيات التي لا يصح الاختلاف فيها وان اختلف أهل النظر في بيان ماتفرع منه فى علوم وضعت للبحث فى الاجتماع البشري خاصة فلا نطيل الكلام فيه هنا

جاءت أديان والناس من فهم مصالحهم العامة بل والخاصة في طور أشبه بطور الطفولية للناشئ الحديث العهد بالوجود لا يألف منه الا ماوقع تحت حسه ويصعب عليه أن يضع الميزان بين يومه وأمسه وأن يتناول بذهنه من المعاني مالا يقرب من لمسه ولم ينفث فى روعه من الوجدان الباطن مايعطفه على غيره من عشيره أو ابن جنسه فهو من الحرص على مايقيم بناء شخصه في هم شاغل عما يلقى اليه فيما يصله بغيره اللهم إلا يدا تصل الى فمه بطعام أو تسنده في قعود أو قيام فلم يكن من حكمة تلك الاديان أن تخاطب الناس بما يلطف فى الوجدان أو يرقى اليه بسلم البرهان بل كان من عظيم الرحمة أن تسير بالأقوام وهم عيال الله سير الوالد مع ولده في سذاجة السن لا يأتيه إلا من قبل مايحسه بسمعه أو بصره فأخذتهم بالاوامر الصادعة والزواجر الرادعة وطالبتهم بالطاعة

وحملتهم فيها على مبلغ الاستطاعة كلفتهم بمعقول المعنى جلي الغاية وان لم يفهموا معناه ولم تصل مداركهم الى مرماه وجاءتهم من الآيات بما تطرف له عيونهم وتنفعل به مشاعرهم وفرضت عليهم من العبادات مايليق بحالهم هذه

ثم مضت على ذلك أزمان علت فيها الاقوام وسقطت وارتفعت وانحطت وجربت وكسبت وتخالفت واتفقت وذاقت من الايام آلاما وتقلبت في السعادة والشقاء أياما وأياما ووجدت الانفس بنفث الحوادث ولقن الكوارث شعورا أدق من الحس وأدخل في الوجدان لايرتفع في الجملة عما تشعر به قلوب النساء أو تذهب معه نزعات الغلمان فجاء دين يخاطب العواطف ويناجى المراحم ويستعطف الاهواء ويحادث خطرات القلوب فشرع للناس من شرائع الزهادة مايصرفهم عن الدنيا بجملتها ويوجه وجوههم نحو الملكوت الاعلى ويقتضي من صاحب الحق أن لايطالب به ولو بحق ويغلق أبواب السماء في وجوه الاغنياء ومانحو نحو ذلك مما هو معروف وسن للناس سننا فى عبادة الله تتفق مع ماكانوا عليه ومادعاهم اليه فلاقى من تعلق النفوس بدعوته ماأصلح من فاسدها وداوى من أمراضها ثم لم يمض عليه بضعة أجيال حتى ضعفت العزائم البشرية عن احتماله وضاقت الذرائع عن الوقوف عند حدوده والاخذ

باقواله ووقر في الظنون أن اتباع وصاياه ضرب من المحال فهب القائمون عليه أنفسهم لمنافسة الملوك فى السلطان ومزاحمة أهل الترف في جمع الأموال وانحرف الجمهور الاعظم منهم عن جادته بالتأويل وأضافوا عليه ماشاء الهوى، من الاباطيل هذا كان شأنهم فى السجايا والاعمال نسوا طهارته وباعوا نزاهته أمانى العقائد فتفرقوا شيعا وأحدثوا بدعا ولم يستمسكوا من أصوله الا بما ظنوه من أشد أركانها وتوهموه من أقوى دعائمها وهو حرمان العقول من النظر فيه بل وفي غيره من دقائق الاكوان والحظر على الافكار أن تنفذ الى شيء من سرائر الخلقة فصرحوا بأن لا وفاق بين الدين والعقل وأن الدين من أشد أعداء العلم ولم يكف الذاهب الى ذلك أن يأخذ به نفسه بل جد فى حمل الناس على مذهبه بكل مايملك من حول وقوة وأفضي الغلو في ذلك بالانفس الى نزعة كانت أشأم النزعات على العالم الانساني وهى نزعة الحرب بين أهل الدين للالزام ببعض قضايا الدين فتقوض الاصل وتخرمت العلائق بين الاهل وحلت القطيعة محل التراحم والتخاصم مكان التعاون والحرب محل السلام وكان الناس على ذلك الى أن جاء الاسلام

كان سن الاجتماع البشرى قد بلغ بالانسان أشده وأعدته الحوادث الماضية إلى رشده فجاء الاسلام يخاطب العقل ويستصرخ الفهم واللب

ويشركه مع العواطف والاحساس في ارشاد الانسان إلى سعادته الدنيوية والاخروية وبين للناس ما اختلفوا فيه وكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه وبرهن على أن دين الله في جميع الاجيال واحد ومشيئته في إصلاح شؤنهم وتطهير قلوبهم واحدة وأن رسم العبادة على الاشباح انما هو لتجديد الذكرى في الارواح وأن الله لا ينظر الى الصور ولكن ينظر الى القلوب وطالب المكلف برعاية جسده كما طالبه باصلاح سره ففرض نظافة الظاهر كما أوجب طهارة الباطن وعد كلا الامرين طهرا مطلوبا وجعل روح العبادة الاخلاص وان ما فرض من الاعمال انما هو لما أوجب من التطبع بصالح الملكات « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » « ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا الا المصلين » ورفع الغني الشاكر الى مرتبة الفقير الصابر بل ربما فضله عليه وعامل الانسان في مواعظه معاملة الناصح الهادي للرجل الرشيد فدعاه الى استعمال جميع قواه الظاهرة والباطنة وصرح بما لا يقبل التأويل ان في ذلك رضا الله وشكر نعمته وأن الدنيا مزرعة الآخرة ولا وصول الى خير العقبى الا بالسعي في صلاح الدنيا

التفت الى أهل العناد فقال لهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين وعنف النازعين الى الخلاف والشقاق على ما نزعوا من أصول اليقين

ونص على أن التفرق بغي وخروج عن سبيل الحق المبين ولم يقف في ذلك عند حد الموعظة بالكلام والنصيحة بالبيان بل شرع شريعة الوفاق وقررها في العمل فأباح للمسلم أن يتزوج من أهل الكتاب وسوغ مؤاكلتهم وأوصى أن تكون مجادلتهم بالتي هي أحسن ومن المعلوم أن المحاسنة هي رسول المحبة وعقد الالفة والمصاهرة انما تكون بعد التحاب بين أهل الزوجين والارتباط بينهما بروابط الائتلاف ثم أخذ العهد على المسلمين أن يدافعوا عمن يدخل في ذمتهم من غيرهم كما يدافعون عن أنفسهم ونص على أن لهم مالنا وعليهم ما علينا ولم يفرض عليهم جزاء ذلك الا زهيدا يقدمونه من مالهم ونهى بعد ذلك عن كل اكراه في الدين وطيب قلوب المؤمنين في قوله يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم فعليهم الدعوة الى الخير بالتي هي أحسن وليس لهم ولا عليهم أن يستعملوا أي ضرب من ضروب القوة في الحمل على الاسلام فان نوره جدير أن يخترق القلوب وليست الآية في الامر بالمعروف بين المسلمين فانه لا اهتداء الا بعد القيام به ولو أريد ذلك لكان التعبير « على كل واحد منكم بنفسه » لا « عليكم أنفسكم » كما هو ظاهر لكل عربي كل ذلك ليرشد الناس الى أن الله لم يشرع لهم الدين ليتفرقوا فيه ولكن ليهديهم الى الخير في جميع نواحيه

رفع الاسلام كل امتياز بين الاجناس البشرية وقرر لكل فطرة شرف النسبة الى الله في الخلقة وشرف اندراجها في النوع الانساني بالجنس والفصل والخاصة وشرف استعدادها بذلك لبلوغ أعلى درجات الكمال الذي أعده الله لنوعها على خلاف مازعمه المنتحلون من الاختصاص بمزايا حرم منها غيرهم وتسجيل الخسة على أصناف زعموا أنها لن تبلغ من الشأن أن تلحق غبارهم فأماتوا بذلك الارواح في معظم الامم وصيروا أكثر الشعوب هياكل وأشباح

هذه عبادات الاسلام على ما في الكتاب وصحيح السنة تتفق على ما يليق بجلال الله وسمو وجوده عن الاشباه وتلتئم مع المعروف عند العقول السليمة فالصلاة ركوع وسجود وحركة وسكون ودعاء وتضرع وتسبيح وتعظيم وكلها تصدر عن ذلك الشعور بالسلطان الالهى الذى يغمر القوة البشرية ويستغرق الحول فتخشع له القلوب وتستخذى له النفوس وليس فيها شيء يعلو على متناول العقل الا نحو تحديد عدد الركعات أو رمى الجمرات على أنه مما يسهل التسليم فيه لحكمة العليم الخبير وليس فيه من من ظاهر العبث واستحالة المعنى ما يخل بالاصول التى وضعها الله للعقل فى الفهم والتفكير أما الصوم فحرمان يعظم به أمر الله فى النفس وتعرف به مقادير النعم عند فقدها ومكانة الاحسان الالهى في

التفضل بها « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون »
أما أعمال الحج فتذكير للانسان بأوليات حاجاته وتمهيد له بتمثيل
المساواة بين أفراده ولو فى العمر مرة يرتفع فيها الامتياز بين الغنى والفقير
والصعلوك والامير ويظهر الجميع في معرض واحد عراة الابدان
متجردين عن آثار الصنعة وحدت بينهم العبودية لله رب العالمين كل ذلك
مع استبقائهم في الطواف والسعى والمواقف ولمس الحجر ذكرى ابراهيم
عليه السلام وهو أبو الدين وهو الذى سماهم المسلمين واستقرار يقينهم على
أن لا شيء من تلك البقايا الشريفة يضر أو ينفع وشعار هذا الاذعان الكريم
في كل عمل « الله أكبر » أين هذا كله مما تجد في عبادات أقوام آخرين
يضل فيها العقل ويتعذر معها خلوص السر للتنزيه والتوحيد

كشف الاسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون
الكبير « العالم » والكون الصغير « الانسان » فقرر أن آيات الله
الكبرى في صنع العالم انما يجري أمرها على السنن الالهية التي قدرها الله
في علمه الازلى لا يغيرها شيء من الطوارئ الجزئية غير أنه لا يجوز أن يغفل
شأن الله فيها بل ينبغى أن يحيي ذكره عند رؤيتها فقد جاء على لسان النبى
صلى الله عليه وسلم « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان
لموت أحد ولا لحياته فاذا رأيتم ذلك فاذكروا الله » وفيه التصريح

بأن جميع آيات الكون تجرى على نظام واحد لا يقضي فيه الا العناية الازلية على السنن التى أقامته عليها ثم أماط اللثام عن حال الانسان في النعم التى يتمتع بها الاشخاص أو الامم والمصائب التى يرزؤن بها ففصل بين الامرين فصلا لا مجال معه للخلط بينهما فأما النعم التي يمتع الله بها بعض الاشخاص فى هذه الحياة والرزايا التى يرزأ بها في نفسه فكثير منها كالثروة والجاه والقوة والبنين أو الفقر والضعة والضعف والفقد قد لا يكون كاسبها أو جالبها ما عليه الشخص في سيرته من استقامة وعوج أو طاعة وعصيان وكثيرا ما أمهل الله بعض الطغاة البغاة أو الفجرة الفسقة وترك لهم متاع الحياة الدنيا إنظارا لهم حتى يتلقاهم ما أعد لهم من العذاب المقيم في الحياة الاخرى وكثيرا ما امتحن الله الصالحين من عباده وأثنى عليهم في الاستسلام لحكمه وهم الذين اذا أصابتهم مصيبة عبروا عن إخلاصهم في التسليم بقولهم « إنا لله وانا اليه راجعون » فلا غضب زيد ولا رضا عمرو ولا إخلاص سريرة ولا فساد عمل مما يكون له دخل فى هذه الرزايا ولا في تلك النعم الخاصة اللهم الا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب بالسبب على جارى العادة كارتباط الفقر بالاسراف والذل بالجبن وضياع السلطان بالظلم وكارتباط الثروة بحسن التدبير في الاغلب والمكانة عند الناس بالسعي فى مصالحهم على الاكثر وما يشبه

ذلك مما هو مبين في علم آخر

أما شأن الامم فليس على ذلك فان الروح الذى أودعه الله جميع شرائعه الالهية من تصحيح الفكر وتسديد النظر وتأديب الاهواء وتحديد مطامح الشهوات والدخول الى كل أمر من بابه وطلب كل رغيبة من أسبابها وحفظ الامانة واستشعار الاخوة والتعاون على البر والتناصح فى الخير والشر وغير ذلك من أصول الفضائل ذلك الروح هو مصدر حياة الامم ومشرق سعادتها في هذه الدنيا قبل الآخرة «من يرد ثواب الدنيا نؤته منها» ولن يسلب الله عنها نعمته مادام هذا الروح فيها يزيد الله النعم بقوته وينقصها بضعفه حتى اذا فارقها ذهبت السعادة على أثره وتبعته الراحة الى مقره واستبدل الله عزة القوم بالذل وكثرهم بالقل ونعيمهم بالشقاء وراحتهم بالعناء وسلط عليهم الظالمين أو العادلين فأخذهم بهم وهم في غفلة ساهون «واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا» أمرناهم بالحق ففسقوا عنه الى الباطل ثم لا ينفعهم الانين ولا يجديهم البكاء ولا يفيدهم مابقى من صور الاعمال ولا يستجاب منهم الدعاء ولا كاشف لما نزل بهم الا أن يلجؤا الى ذلك الروح الاكرم فيستنزلوه من سماء الرحمة برسل الفكر والذكر والصبر والشكر «ان الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» «سنة الله في الذين

خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » وما أجلّ ما قاله العباس بن عبد المطلب في استسقائه « اللهم إنه لم ينزل بلاء الا بذنب ولم يرفع الا بتوبة » على هذه السنن جرى سلف الامة فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية ويأخذ نفسه بما يتبعها من الاعمال الجليلة كان غيره يظن أنه يزلزل الارض بدعائه ويشق الفلك ببكائه وهو ولع باهوائه ماض فى غلوائه وما كان يغنى عنه ظنه من الحق شيأ

حث القرآن على التعليم وإرشاد العامة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال « ولولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » ثم فرض ذلك في قوله « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين ولله مافى السموات ومافي الارض والى الله ترجع الامور » ثم بعد هذا الوعيد الذى يزعج المفرطين وتحق به كلمة العذاب على المختانين

والمقصرين أبرز حال الامارين بالمعروف الناهين عن المنكر فى أجل مظهر يمكن أن تظهر فيه حال أمة فقال « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » فقدم ذكر الامر بالمعروف والنهى عن المنكر على الايمان في هذه الآية مع أن الايمان هو الاصل الذي تقوم عليه أعمال البر والدوحة التي تتفرع عنها أفنان الخير تشريفا لتلك الفريضة واعلاء لمنزلتها بين الفرائض بل تنبيها على أنها حفاظ الايمان وملاك أمره ثم شدد بالانكار على قوم أغفلوها وأهل دين أهملوها فقال « لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ماكانوا يفعلون » فقذف عليهم اللعنة وهى أشد ماعنون الله به على مقته وغضبه

فرض الاسلام للفقراء في أموال الاغنياء حقا معلوما يفيض به الآخرون على الاولين سد الحاجة المعدم وتفريجا لكربة الغارم وتحريرا لرقاب المستعبدين وتيسيرا لابناء السبيل ولم يحث على شئ حثه على الانفاق من الاموال فى سبيل الخير وكثيرا ما جعله عنوان الايمان ودليل الاهتداء الى الصراط المستقيم فاستل بذلك ضغائن أهل الفاقة ومحص صدورهم من الاحقاد على من فضلهم الله عليهم في الرزق وأشعر

قلوب أولئك محبة هؤلاء وساق الرحمة في نفوس هؤلاء على أولئك البائسين فاستقرت بذلك الطمأنينة في نفوس أجمعين وأي دواء لامراض الاجتماع أنجع من هذا « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم »

أغلق الاسلام بابي الشر وسد ينبوعى فساد العقل والمال بتحريمه الخمر والمقامرة والربا تحريما باتا لاهوادة فيه

لم يدع الاسلام بعد ماقررنا أصلا من أصول الفضائل الا أتى عليه ولا أما من أمهات الصالحات الا أحياها ولا قاعدة من قواعد النظام الا قررها فاستجمع للانسان عند بلوغ رشده كما ذكرنا حرية الفكر واستقلال العقل فى النظر وما به صلاح السجايا واستقامة الطبع وما فيه إنهاض العزائم الى العمل وسوقها فى سبل السعى ومن يتلو القرآن حق تلاوته يجد فيه من ذلك كنزا لا ينفد وذخيرة لا تفنى هل بعد الرشد وصاية وبعد اكتمال العقل ولاية كلا قد تبين الرشد من الغي ولم يبق الا اتباع الهدى والانتفاع بما ساقته أيدى الرحمة لبلوغ الغاية من السعادتين لهذا ختمت النبوات بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وانتهت الرسالات برسالته كما صرح بذلك الكتاب وأيدته السنة الصحيحة وبرهنت عليه خيبة مدعيها من بعده واطمئنان العالم بما وصل اليه من العلم الى أن لا سبيل

بعد لقبول دعوة يزعم القائم بها أنه يحدث عن الله بشرع أو يصدع عن وحيه بأمر هكذا يصدق نبأ الغيب « ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما »

انتشار الاسلام بسرعة لم يعهد لها نظير فى التاريخ

كانت حاجة الامم الى الاصلاح عامة فجعل الله رسالة خاتم النبيين عامة كذلك لكن يندهش عقل الناظر في أحوال البشر عند ما يرى ان هذا الدين يجمع اليه الامة العربية من أدناها الى أقصاها في أقل من ثلاثين سنة ثم يتناول من بقية الامم ما بين المحيط الغربى وجدار الصين في أقل من قرن واحد وهو أمر لم يعهد في تاريخ الاديان ولذلك ضل الكثير فى بيان السبب واهتدى اليه المنصفون فبطل العجب

ابتدأ هذا الدين بالدعوة كغيره من الاديان ولقى من أعداء أنفسهم أشد ما يلقى حق من باطل أوذى الداعي صلى الله عليه وسلم بضروب الايذاء وأقيم في وجهه ما كان يصعب تذليله من العقاب لولا عناية الله وعذب المستجيبون له وحرموا الرزق وطردوا من الدار وسفكت منهم دماء غزيرة غير ان تلك الدماء كانت عيون العزائم تتفجر من صخور الصبر يثبت الله بمشهدها المستيقنين ويقذف بها الرعب فى أنفس المرتابين فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الريب وهى ذوب ما فسد من طباعهم

فتجري من مناحرهم جري الدم الفاسد من المفصود على أيدي الاطباء الحاذقين « ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون » تألبت الملل المختلفة ممن كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الاسلام ليحصدوا نبتته ويخنقوا دعوته فما زال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للاقوياء والفقير للاغنياء ولا ناصر له الا أنه الحق بين الاباطيل والرشد فى ظلمات الاضاليل حتى ظفر بالعزة وتعزز بالمنعة وقد وطئ أرض الجزيرة أقوام من أديان أخر كانت تدعو اليها وكانت لهم ملوك وعزة وسلطان وحملوا الناس على عقائدهم بأنواع من المكاره ومع ذلك لم يبلغ بهم السعي نجاحا ولا أنالهم القهر فلاحا

ضم الاسلام سكان القفار العربية الى وحدة لم يعرفها تاريخهم ولم يعهد لها نظير في ماضيهم وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أبلغ رسالته بأمر ربه الى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والرومان فهزؤا وامتنعوا وناصبوه وقومه الشر وأخافوا السابلة وضيقوا على المتاجر فبعث اليهم البعوث في حياته وجرى على سنته الائمة من صحابته طلبا للامن وابلاغا للدعوة فاندفعوا في ضعفهم وفقرهم يحملون الحق على أيديهم وانها لوابه على تلك الامم في قوتها ومنعتها وكثرة عددها

واستكمال أهبها وعددها فظفروا منها بما هو معلوم وكانوا متى وضعت الحرب أوزارها واستقر السلطان للفاتح عطفوا على المغلوبين بالرفق واللين وأباحوا لهم البقاء على أديانهم واقامة شعائرها آمنين مطمئنين ونشروا حمايتهم عليهم يمنعونهم مما يمنعون منه أهلهم وأموالهم وفرضوا عليهم كفاء ذلك جزأ قليلا من مكاسبهم على شرائط معينة كانت الملوك من غير المسلمين إذا فتحوا مملكة أتبعوا جيشها الظافر بجيش من الدعاة الى دينها يلجون على الناس بيوتهم ويغشون مجالسهم ليحملوهم على دين الظافر وبرهانهم الغلبة وحجتهم القوة ولم يقع ذلك لفاتح ولم يعهد فى تاريخ فتوح الاسلام أن كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة يأخذون على انفسهم العمل فى نشره ويقفون مسعاهم على بث عقائده بين غير المسلمين بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم ومحاسنتهم فى المعاملة وشهد العالم بأسره أن الاسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلا وإحسانا عند ما كان يعدها الاوروبيون ضعة وضعفا رفع الاسلام ماثقل من الاتاوات ورد الاموال المسلوبة الى أربابها وانتزع الحقوق من مغتصبيها ووضع المساواة فى الحق عند التقاضي بين المسلم وغير المسلم بلغ أمر المسلمين فيما بعد أن لا يقبل اسلام من داخل فيه الا بين يدى قاض شرعى باقرار من المسلم الجديد أنه اسلم بلا اكراه ولا رغبة فى دنيا وصل الامر فى عهد بعض

الخلفاء الامويين أن كره عمالهم دخول الناس في دين الاسلام لما رأوا انه ينقص من مبالغ الجزية وكان في حال أولئك العمال صد عن سبيل الدين لا محالة عرف خلفاء المسلمين وملوكهم في كل زمن ما لبعض أهل الكتاب بل وغيرهم من المهارة في كثير من الاعمال فاستخدموهم وصعدوا بهم الى أعلى المناصب حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش في اسبانيا اشتهرت حرية الاديان في بلاد الاسلام حتى هجر اليهود أوربا فرارا منها بدينهم الى بلاد الاندلس وغيرها

هذا ما كان من أمر المسلمين في معاملتهم لمن أظلوهم بسيوفهم لم يفعلوا شيأ سوى أنهم حملوا الى أولئك الاقوام كتاب الله وشريعته وألقوا بذلك بين أيديهم وتركوا الخيار لهم في القبول وعدمه ولم يقوموا بينهم بدعوة ولم يستعملوا لاكراههم عليه شيأ من القوة وما كان من الجزية لم يكن مما يثقل أداؤه على من ضربت عليه فما الذي أقبل بأهل الاديان المختلفة على الاسلام وأقنعهم انه الحق دون ما كان لديهم حتى دخلوا فيه أفواجا وبذلوا في خدمته ما لم يبذل له العرب أنفسهم

ظهور الاسلام على ما كان في جزيرة العرب من ضروب العبادات الوثنية وتغلبه على ما كان فيها من رذائل الاخلاق وقبائح الاعمال وسيره بسكانها على الجادة القويمة حقق لقراء الكتب الالهية السابقة أن ذلك

هو وعدالله لنبيه ابراهيم واسماعيل وان هذا لدين هو ماكانت تبشر به الانبياء أقوامها من بعدهما فلم تجد أهل النصفة منهم سبيلا الى البقاء على العناد فى مجاحدته فتلقوه شاكرين وتركوا ما كان لهم بين قومهم صابرين أوقع ذلك من الريب فى قلوب مقلديهم ماحركهم الى النظر فيه فوجدوا الطفا ورحمة وخيرا ونعمة لا عقيدة ينفر منها العقل وهو رائد الايمان الصادق ولا عمل تضعف عن احتماله الطبيعة البشرية وهى القاضية في قبول المصالح والمرافق رأوا أن الاسلام يرفع النفوس بشعور من اللاهوت يكاد يعلو بها عن العالم السفلى ويلحقها بالملكوت الاعلى ويدعوها الى احياء ذلك الشعور بخمس صلوات في اليوم وهو مع ذلك لا يمنع من التمتع بالطيبات ولا يفرض من الرياضات وضروب الزهادة مايشق على الفطرة البشرية تجشمه ويعد برضا الله ونيل ثوابه حتى فى توفية البدن حقه متى حسنت النية وخلصت السريرة فاذا نزت شهوة أوغلب هوى كان الغفران الالهى ينتظره متى حسنت التوبة وكملت الاوبة تبدت لهم سذاجة الدين عند ماقرؤا القرآن ونظروا في سيرة الطاهرين من حامليه اليهم وظهر لهم الفرق بين مالا سبيل الى فهمه وما تكفى جولة نظر فى الوصول الى علمه فتراموا اليه خفافا من ثقل ماكانوا

عليه كانت الامم تطلب عقلا في دين فوافاها وتتطلع الى عدد في ايمان فأتاها فما الذى يحجم بها عن المسارعة الى طلبتها والمبادرة الى رغيبتها كانت الشعوب تئن من ضروب الامتيازات التي رفعت بعض الطبقات على بعض بغير حق وكان من حكمها أن لا يقام وزن لشؤن الادنين متى عرضت دونها شهوات الاعلين فجاء دين يحدد الحقوق ويسوي بين جميع الطبقات فى احترام النفس والدين والعرض والمال ويسوغ لامرأة فقيرة غير مسلمة أن تأبى بيع بيت صغير بأية قيمة لامير عظيم مطلق السلطان فى قطر كبير وما كان يريده لنفسه ولكن ليوسع به مسجدا فلما عقد العزيمة على أخذه مع دفع أضعاف قيمته رفعت الشكوى الى الخليفة فورد أمره برد بيتها اليها مع لوم الامير على ما كان منه عدل يسمح لليهودي أن يخاصم مثل على بن أبي طالب امام القاضي وهو من نعلم من هو ويستوقفه معه للتقاضى الى أن قضى الحق بينهما هذا وما سبق بيانه مما جاء به الاسلام هو الذى حببه الى من كانوا أعداءه ورد اليه أهواءهم حتى صاروا أنصاره وأولياءه

غلب على المسلمين في كل زمن روح الاسلام فكان من خلقهم العطف على من جاورهم من غيرهم ولم تستشعر قلوبهم عداوة لمن خالفهم الا بعد أن يحرجهم الجار فهم كانوا يتعلمون نا ممن سواهم ثم لا يكون الا طائفا يحل ثم

يرتحل فاذا انقطعت أسباب الشغب تراجعت القلوب الى سابق ماألفته من اللين والمياسرة ومع ذلك بل وغفلة المسلمين عن الاسلام وخذلانهم له وسعي الكثير منهم في هدمه بعلم وبغير علم لم يقف الاسلام فى انتشاره عند حد خصوصا في الصين وفي أفريقيا ولم يخل زمن من رؤية جموع كثيرة من ملل مختلفة تنزع الى الاخذ بعقائده على بصيرة فيما تنزع اليه لا سيف وراءها ولا داعى أمامها وانما هو مجرد الاطلاع على ماأودعه مع قليل من حركة الفكر فى العلم بشرعه ومن هذا تعلم أن سرعة انتشار الدين الاسلامى واقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة انما كان لسهولة تعقله ويسر أحكامه وعدالة شريعته وبالجملة لان فطر البشر تطلب دينا وترتاد منه ماهو أمس بمصالحها وأقرب الى قلوبها ومشاعرها وادعى الى الطمأنينة في الدنيا والآخرة ودين هذا شأنه يجد الى القلوب منفذا والى العقول مخلصا بدون حاجة الى دعاة ينفقون الاموال الكثيرة والاوقات الطويلة ويستكثرون من الوسائل ونصب الحبائل لاسقاط النفوس فيه هذا كان حال الاسلام في سذاجته الاولى وطهارته التي أنشأه الله عليها ولا يزال على جانب عظيم منها في بعض أطراف الارض الى اليوم

قال من لم يفهم ماقدمناه أو لم يرد أن يفهمه ان الاسلام لم يطف على قلوب العالم بهذه السرعة الا بالسيف فقد فتح المسلمون ديار غيرهم والقرآن

باحدى اليدين والسيف بالاخرى يعرضون القرآن على المغلوب فان لم يقبله فصل السيف بينه وبين حياته سبحانك هذا بهتان عظيم ماقدمناه من معاملة المسلمين مع من دخلوا تحت سلطانهم هو ماتواترت به الاخبار تواترا صحيحا لا يقبل الريبة في جملته وان وقع اختلاف في تفصيله وانما شهر المسلمون سيوفهم دفاعا عن أنفسهم وكفا للعدوان عنهم ثم كان الافتتاح بعد ذلك من ضرورة الملك ولم يكن من المسلمين مع غيرهم الا أنهم جاوروهم وأجاروهم فكان الجوار طريق العلم بالاسلام وكانت الحاجة لصلاح العقل والعمل داعية الانتقال اليه

لو كان السيف ينشر دينا فقد عمل في لرقاب للاكراه على لدين والالزام به مهددا كل أمة لم تقبله بالابادة والمحو من سطح البسيطة مع كثرة الجيوش ووفرة العدد وبلوغ القوة أسمى درجة كانت تمكن لها وابتدأ ذلك العمل قبل ظهور الاسلام بثلاثة قرون كاملة واستمر في شدته بعد مجيء الاسلام سبعة أجيال أو يزيد فتلك عشرة قرون كاملة لم يبلغ فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الاسلام في أقل من قرن هذا ولم يكن السيف وحده بل كان الحسام لا يتقدم خطوة الا والدعاة من خلفه يقولون ما يشاؤن تحت حمايته مع غيرة تفيض من الافئدة وفصاحة تتدفق عن الالسنة وأموال تخلب ألباب المستضعفين ان في ذلك لآيات

للمستيقنين

جاءت حكمة الله في أمر هذا الدين سلسبيل حياة نبع في القفار العربية أبعد بلاد الله عن المدنية فاض حتى شملها فجمع شملها فاحياها حياة شعبية مليئة علامده حتي استغرق ممالك كانت تفاخر أهل السماء في رفعتها وتعلو أهل الارض بمدنيتها زلزل هديره على لينه ما كان استحجر من الارواح فانشقت عن مكنون سر الحياة فيها قالوا كان لايخلو من غاب « بالتحريك » قلنا تلك سنة الله فى الخلق لاتزال المصارعة بين الحق والباطل والرشد والغي قائمة فى هذا العالم الى أن يقضي الله قضاءه فيه اذا ساق الله ربيعا الى أرض جدبة ليحيي ميتها وينفع غلتها وينمى الخصب فيها أفينتقص من قدره أن أتى فى طريقه على عقبة فعلاها أو بيت رفيع العماد فهوي به

سطع الاسلام على الديار التى بلغها أهله فلم يكن بين أهل تلك الديار وبينه الا أن يسمعوا كلام الله ويفقهوه اشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمنا وانحرفوا عن طريق الدين أزمانا فوقف وقفة القائد خذله الانصار وكاد يتزحزح الى ماوراء لكن الله بالغ أمره فانحدرت الى ديار المسلمين أمم من التتار يقودها جنكيزخان وفعلوا بالمسلمين الافاعيل وكانوا وثنيين جاؤا لمحض الغلبة والسلب والنهب ولم يلبث أعقابهم أن اتخذوا

الاسلام دينا وحملوه الى أقوامهم فعمهم منه ماعم غيرهم جاؤالشقوتهم فماجوا بسعادتهم

حمل الغرب على الشرق حملة واحدة لم يبق ملك من ملوكه ولا شعب من شعوبه الا اشترك فيها واستمرت المجالدات بين الغربيين والشرقيين أكثر من مائتى سنة جمع فيها الغربيين من الغيرة والحمية للدين مالم يسبق لهم من قبل وجيشوا من الجند وأعدوا من القوة مابلغته طاقتهم وزحفوا على ديار المسلمين وكانت فيهم بقية من روح الدين فغلب الغربيون على كثير من البلاد الاسلامية وانتهت تلك الحرور الجارفة باجلائهم عنها لم جاؤا وبماذا رجعوا ظفر رؤساء الدين فى الغرب باثارة شعوبهم ليبيدوا مايشاؤن من سكان الشرق أويستولى سلطان تلك الشعوب على مايعتقدون لانفسهم الحق في الاستيلاء عليه من البلاد الاسلامية جاء من الملوك والامراء وذوى الثروة والاعلياء جم غفير وجاء ممن دونهم من الطبقات ماقدروه بالملايين استقر المقام بكثير من هؤلاء فى أرض المسلمين وكانت فترات تنطفئ فيها نار الغضب وتثوب العقول الى سكينتها تنظر فى أحوال المجاورين وتلتقط من أفكار المخالطين وتنفعل بما ترى وماتسمع فتبينت أن المبالغات التى أطاشت الاحلام وجسمت الآلام لم تصب مستقر الحقيقة ثم وجدت حرية فى دين وعلما

وشرعا وصنعة مع كمال في يقين وتعلمت أن حرية الفكر وسعة العلم من وسائل الايمان لا من العوادي عليه ثم جمعت من الآداب ماشاء الله وانطلقت الى بلادها قريرة العين بما غنمته من جلادها هذا الي ماكسبه السفار من أطراف الممالك الى بلاد الاندلس بمخالطة حكمائها وأدبائها ثم عادوا به الى شعوبهم ليذيقوهم حلاوة ما كسبوا وأخذت الافكار من ذلك العهد تتراسل والرغبة في العلم تتزايد بين الغربيين ونهضت الهمم لقطع سلاسل التقاليد ونزعت العزائم الى تقييد سلطان زعماء الدين والاخذ على أيديهم فيما تجاوزوا فيه وصاياه وحرفوا في معناه ولم يكن بعد ذلك الا قليل من الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعو الى الاصلاح والرجوع بالدين الى سذاجته وجاءت في اصلاحها بما لا يبعد عن الاسلام الا قليلا بل ذهب بعض طوائف الاصلاح في العقائد الى ما يتفق مع عقيدة الاسلام الا في التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وأن ماهم عليه انما هو دينه يختلف عنه اسما ولا يختلف معنى الا في صورة العبادة لاغير

ثم أخذت أمم أوربا تفتك من أسرها وتصلح من شؤنها حتى استقامت أمور دنياها على مثل مادعا اليه الاسلام غافلة عن قائدها لاهية عن مرشدها وتقررت أصول المدنية الحاضرة التي تفاخر بها الاجيال

المتأخرة ماسبقها من أهل الازمان الغابرة هذا طل من وابله أصاب أرضا قابلة فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج جاء القوم ليبيدوا فاستفادوا وعادوا ليفيدوا ظن الرؤساء أن فى إهاجة شعوبهم شفاء ضغنهم وتقوية ركنهم فبؤا بوضوح شأنهم وضعضعة سلطانهم وما بيناه في شأن الاسلام ويعرفه كل من تفقه فيه قد ظفر به كثير من أهل النظر فى بلاد الغرب فعرفوا له حقه واعترفوا أنه كان أكبر أساتذتهم فيما هم فيه اليوم والى الله عاقبة الامور

ايراد سهل الايراد

يقول قائلون اذا كان الاسلام انما جاء لدعوة المختلفين الى الاتفاق وقال كتابه « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيء » فما بال الملة الاسلامية قد مزقتها المشارب وفرقت بين طوائفها المذاهب اذا كان الاسلام موحدا فما بال المسلمين عددوا اذا كان موليا وجه العبد وجهة الذى خلق السموات والارض فما بال جمهورهم يولون وجوههم من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا يستطيع من دون الله خيرا ولا شرا وكادوا يعدون ذلك فصلا من فصول التوحيد اذا كان أول دين خاطب العقل ودعاه الى النظر في الاكوان وأطلق له العنان يجول في ضمائرها بما يسعه الامكان ولم يشترط عليه في ذلك سوى المحافظة على عقد الايمان

فما بالهم قنعوا باليسير وكثير منهم أغلق على نفسه باب العلم ظناً منه أنه قد يرضي الله بالجهل واغفال النظر فيما أبدع من محكم الصنع ما بالهم وقد كانوا رسل المحبة أصبحوا اليوم وهم يتنسمونها ولا يجدونها ما بالهم بعد أن كانوا قدوة فى الجد والعمل أصبحوا امثلا فى القعود والكسل ما هذا الذى ألحق المسلمون بدينهم وكتاب الله بينهم يقيم ميزان القسط بين ما ابتدعوه وبين ما دعاهم اليه فتركوه اذا كان الاسلام فى قربه من العقول والقلوب على ما بينت فما باله اليوم على رأى القوم تقصر دون الوصول اليه يد المتناول اذا كان الاسلام يدعو الى البصيرة فيه فما بال قراء القرآن لا يقرؤنه الا تغنيا ورجال العلم بالدين لا يعرفه أغلبهم الا تظنيا * اذا كان الاسلام منح العقل والارادة شرف الاستقلال فما بالهم شدوهما الى أغلال أي أغلال اذا كان قد أقام قواعد العدل فما بال أغلب حكامهم يضرب بهم المثل في الظلم اذا كان الدين فى تشوف الى حرية الارقاء فما بالهم قضوا قرونا فى استعباد الاحرار اذا كان الاسلام يعد من أركانه حفظ العهود والصدق والوفاء فما بالهم قد فاض بينهم الغدر والكذب والزور والافتراء اذا كان الاسلام يحظر الغيلة ويحرم الخديعة ويوعد على الغش بان الغاش ليس من أهله فما بالهم يحتالون حتى على الله وشرعه وأوليائه اذا كان قد حرم الفواحش

ماظهر منها وما بطن فما هذا الذي نراه بينهم في السر والعلن والنفس والبدن اذا كان قد صرح بان الدين النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين خاصتهم وعامتهم وان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر وأنهم ان لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر سلط عليهم شرارهم فيدعو خيارهم فلا يستجاب لهم وشدد في ذلك بما لم يشدد في غيره فما بالهم لا يتناصحون ولا يتواصون بحق ولا يعتصمون بصبر ولا يتناصحون في خير ولا شر بل ترك كل صاحبه وألقى حبله على غاربه فماشوا أفذاذا وصاروا في أعمالهم أفرادا لا يحس أحدهم بما يكون من عمل أخيه كأنه ليس منه وكأن لم تجمعه معه صلة ولم تضمه اليه وشيجة مابال الابناء يقتلون الآباء ومابال البنات يعققن الامهات أين وشائج الرحمة أين عاطفة الرحم على القريب أين الحق الذي فرض في أموال الاغنياء للفقراء وقد أصبح الاغنياء يسلبون ما بقي في أيدي أهل البأساء

قبس من الاسلام أضاء الغرب كما تقول وضوءه الاعظم وشمسه الكبرى في الشرق وأهله في ظلمات لا يبصرون أصح هذا في عقل أو عهد في نقل ألم تر الى الذين تذوقوا من العلم شيأ وهم من أهل هذا الدين أول ما يعلق بأوهام أكثرهم ان عقائده خرافات وقواعده وأحكامه ترهات

ويجدون لذتهم في التشبه بالمستهزئين ممن سموا أنفسهم أحرار الافكار وبعداء الانظار والى الذين قصروا هممهم على تصفح أوراق من كتبه ووسموا أنفسهم بأنهم حفاظ أحكامه والقوام على شرائعه كيف يجافون علوم النظر ويهزؤن بها ويرون العمل فيها عبثا فى الدين والدنيا ويفتخر الكثير منهم بجهلها كأنه في ذلك قد هجر منكرا او ترفع عن دنيئة فمن وقف على باب العلم من المسلمين يجد دينه كالثوب الخلق يستحي أن يظهر به بين الناس ومن غرته نفسه بأنه على شيء من الدين وانه مستمسك بعقائده يرى العقل جنة والعلم ظنة أليس في هذا مايشهد الله وملائكته والناس أجمعين على أن لا وفاق بين العلم والعقل وهذا الدين

الجواب

ربما لم يبالغ الواصف لما عليه المسلمون اليوم بل من عدة أجيال وربما كان ماجاء فى الايراد قليلا من كثير وقد وصف الشيخ الغزالى رحمه الله وابن الحاج وغيرهما من أهل البصر فى الدين ما كان عليه مسلمو زمانهم عامتهم وخاصتهم بما حوته مجلدات ولكن قد أتيت في خاصة الدين الاسلامي بما يكفي للاعتراف به مجرد تلاوة القرآن مع التدقيق في فهم معانيه وحملها على مافهمه أولئك الذين أنزل فيهم وعمل به بينهم ويكفي في الاعتراف بما ذكرته من جميل أثره قراءة ورقات فى التاريخ على ماكتبه

محققو الاسلام ومنصفو سائر الامم فذلك هو الاسلام وقد أسلفنا أن الدين هدي وعقل من أحسن فى استعماله والاخذ بما أرشد اليه نال من السعادة ما وعد الله على اتباعه وقد جرب علاج لاجتماع الانساني بهذا الدواء فظهر نجاحه ظهورا لا يستطيع معه الاعمى انكارا ولا الاصم إعراضا وغاية ما قيل في ألا يراد أن أعطى الطبيب الى المريض دواء فصح المريض وانقاب الطبيب بالمرض الذي كان يعمل لمعالجته وهو يتجرع الغصص من آلامه والدواء في بيته وهو لا يتناوله وكثير ممن يعودونه أو يتشفون منه ويشمتون لمصيبته يتناولون من ذلك الدواء فيعافون من مثل مرضه وهو فى يأس من حياته ينتظر الموت أو تبدل سنة الله فى شفاء أمثاله كلامنا اليوم في الدين الاسلامى وحاله على ما بينا أما المسلمون وقد أصبحوا بسيرهم حجة على دينهم فلا كلام لنا فيهم الآن وسيكون الكلام عنهم فى كتاب آخر ان شاء الله

التصديق بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم

بعد أن ثبتت نبوته عليه السلام بالدليل القاطع على ما بينا وأنه انما يخبر عن الله تعالى فلا ريب أنه يجب تصديق خبره والايمان بما جاء به ونعنى بما جاء به ما صرح به فى الكتاب العزيز وما تواتر الخبر به تواترا صحيحا مستوفيا لشرائطه وهو ما أخبر به جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب عادة

فى أمر محسوس ومن ذلك أحوال مابعد الموت من بعث ونعيم في جنة وعذاب فى نار وحساب على حسنات وسيئات وغير ذلك مما هو معروف ويجب أن يقتصر فى الاعتقاد على ماهو صريح في الخبر ولا تجوز الزيادة على ماهو قطعى بظنى وشرط صحة الاعتقاد أن لا يكون فيه شيء يمس التنزيه وعلو المقام الالهي عن مشابهة المخلوقين فان ورد مايوهم ظاهره ذلك فى المتواتر وجب صرفه عن الظاهر إما بتسليم لله في العلم بمعناه مع اعتقاد أن الظاهر غير مراد أو بتأويل تقوم عليه القرائن المقبولة أما أخبار الآحاد فانما يجب الايمان بما ورد فيها على من بلغته وصدق بصحة روايتها أما من لم يبلغه الخبر أو بلغه وعرض له شبهة فى صحته وهو ليس من المتواتر فلا يطعن فى ايمانه عدم التصديق به والاصل فى جميع ذلك أن من أنكر شيأ وهو يعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم حدث به أوقرره فقد طعن فى صدق الرسالة وكذب بها ويلحق به من أهمل فى العلم بالمتواتر وعلم أنه من الدين بالضرورة وهو مافي الكتاب وقليل من السنة فى العمل

من اعتقد بالكتاب العزيز وبما فيه من الشرائع العملية وعسر عليه فهم أخبار الغيب على ماهي في ظاهر القول وذهب بعقله الى تأويلها بحقائق يقوم له الدليل عليها مع الاعتقاد بحياة بعد الموت وثواب

وعقاب على الاعمال والعقائد بحيث لا ينقص تأويله شيأ من قيمة الوعد والوعيد ولا ينقض شيأ من بناء الشريعة في التكليف كان مؤمنا حقا وان كان لا يصح اتخاذه قدوة في تأويله فان الشرائع لالهية قد نظر فيها الى ماتبلغه طاقة العامة لا الى ماتشتهيه عقول الخاصة والاصل في ذلك أن الايمان هو اليقين فى الاعتقاد بالله ورسله واليوم الآخر بلا قيد في ذلك إلا احترام ماجاء على ألسنة الرسل

بقيت علينا مسئلتان وضعتا من هذا العلم في مكان من الاهتمام وماهما منه إلا حيث يكون غيرهما مما أجملنا القول فيه الاولى جواز رؤية الله تعالى فى الآخرة والاخرى جواز وقوع الكرامات وخوارق العادات من غير الانبياء من الاولياء والصديقين

أما الاولى فقد اشتد فيها النزاع ثم انتهى الى وفاق بين المنزهين لا مجال معه للتنازع فان القائلين بجواز الرؤية من أهل التنزيه متفقون على أن الرؤية لا تكون على المعهود من رؤية البصر المعروفة لنا فى مجرى العادة بل هي رؤية لا كيف فيها ولا تحديد ومثلها لا يكون الا ببصر يختص الله به أهل الدار الآخرة أو تتغير فيه خاصته المعهودة فى الحياة الدنيا وهو مالا يمكننا معرفته وان كنا نصدق بوقوعه متى صح الخبر والمنكرون لجوازها لم ينكروا انكشافا يساويها فسواء كان ذلك بالبصر الغير المعهود

أو بحاسة أخرى، فهو في المعنى يرجع الى قول خصومهم ولكن منى الاسلام بقوم يحبون الخلاف والله فوق ما يظنون

أما الثانية فانكر جواز وقوع الكرامات أبو اسحاق الاسفرايني من أكابر أصحاب أبي الحسن الاشعري وعلى ذلك المعتزلة الا أبا الحسين البصري فقال بجواز وقوعها وعليه جمهور الاشاعرة واستدل الذاهبون الى الجواز بما جاء في الكتاب من قصة الذي عنده علم من الكتاب الواردة في خبر بلقيس من إحضاره عرشها قبل ارتداد الطرف وقصة مريم عليها السلام وحضور الرزق عندها وقصة أصحاب الكهف واحتج الآخرون بأن ذلك يوقع الشبهة في المعجزات وأولوا ما جاء في الآيات أما أن ذلك يوقع الشبهة في المعجزات فليس بصحيح لان المعجزات انما تظهر مقرونة بدعوى الرسالة والتبليغ عن الله تعالى ولا بد أن تكتنفها حوادث تميزها عما سواها وأما ما احتج به المجوزون من الآيات فلا دليل فيه لان ما في قصة مريم وآصف قد يكون بتخصيص من الله تعالى لوقوعه في عهد الانبياء عليهم الصلاة والسلام ولا علم لنا بما اكتنف تلك الوقائع من شؤن الله في أنبياء ذلك العهد الا قليلا وأما قصة أهل الكهف فقد عدها الله من آياته في خلقه وذكرنا بها لنعتبر بمظاهر قدرته فليست من قبيل ما الكلام فيه من عموم الجواز فبقي البحث في جواز وقوع الكرامات

نوعا من البحث في متناول همم النفوس البشرية وعلاقتها بالكون الكبير
وفي مكان الاعمال الصالحة وارتقاء النفوس فى مقامات الكمال من العناية
الالهية وهو بحث دقيق قد يختص بعلم آخر أما مجرد الجواز العقلى وان
صدور خارق للعادة على يد غير نبي مما تتناوله القدرة الالهية فلا أظن أنه
موضع نزاع يختلف عليه العقلاء وانما الذى يجب الالتفات اليه هو
أن أهل السنة وغيرهم فى اتفاق على أنه لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة
معينة على يد ولى لله معين بعد ظهور الاسلام فيجوز لكل مسلم باجماع
الامة أن ينكر صدور أى كرامة كانت من أى ولى كان ولا يكون
بانكاره هذا مخالفا لشئ من أصول الدين ولا مائلا عن سنة صحيحة
ولا منحرفا عن الصراط المستقيم أين هذا الاصل المجمع عليه مما يهذى
به جمهور المسلمين فى هذه الايام حيث يظنون أن الكرامات وخوارق
العادات أصبحت من ضروب الصناعات يتنافس فيها الاولياء
وتتفاخر فيها همم الاصفياء وهو مما يتبرأ منه الله ودينه وأولياؤه وأهل
العلم أجمعون

خاتمة

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما

استخلاف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بي شيأ ومن كفر بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون» وقد فسر الكفر في هذه الآية بكفر النعمة «وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فاولئك تحرّوا رشدا وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا قل اني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا قل إنى لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا إلا بلاغا من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها أبدا حتى اذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا قل ان أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا الا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصي كل شيء عددا »

صدق الله العظيم وبلغ رسوله الكريم وخسئ الشيطان الرجيم وحق
الشكر لله رب العالمين الرحمن الرحيم.

﴿ تمت ﴾

يقول المتوسل بصالح السلف مصححه الفقير عبد الجواد خلف

خير مافاه به الانسان حمد مولى الاحسان فحمدا لمن لا تحصى
نعمه علينا ولا تعد ولا تكافأ بشكر منا ولا حمد وصلاة وسلاما على
من أضاء باشراق نور رسالته حالك الدجنه سيدنا محمد وعلى آله
واصحابه حماة السنة وحملة الأسنه (وبعد) فقد تم طبع هذا السفر الجليل
بل ذلك الكتاب الذي ليس له في بابه مثيل الآتي في موضوعه بالعجب
العجاب المشتمل مع صغر حجمه على مالا يشتمل عليه اكبر كتاب
الجامع لغرر اصول فن التوحيد وقواعده الحاوى لنكت مسائله
وعوائده المتكفل بحقائق هي لباب آراء المتقدمين المنطوي على
دقائق هى نتائج افكار المتأخرين مائلا عن غاية الاطناب ونهاية الايجاز
لانحا عليه مخايل السحر الحلال ودلائل الاعجاز فهو روضة علم نطقت
بيننا بالحق ودوحة فضل لا يعرف قدرها الا القليل من الخلق

في كل حرف منه معني ورونق
وفي كل سطر منه عقد من الدر

وبالجملة

فاني وان اكثرت فيه مدائحي

فاكثر مما قلت ما انا تارك

وكيف لايكون كذلك ان لم يكن فوق ذلك وناسج بروده وناظم عقوده وحيد آنه وفريد زمانه محقق مباحث العلوم وكشاف معضلات المنطوق والمفهوم

لا يدرك الواصف المطري فضائله

وان يكن سابقا فى كل ما وصفا

اقامت فى الرقاب له اياد

هى الاطواق والناس الحمام

يحوم حول حماه الزائرون كما

ترى الحجيج ببيت الله مزدحما

حلف الزمان ليأتين بمثله

حنثت يمينك يازمان فكفر

من سارت بشهرة صيته الركبان فى جميع الاقطار وظهر ظهور الشمس المضيئة في رابعة النهار فخر الاسلام وقدوة الانام أفضل المتأخرين وأكمل المتبحرين الاستاذ الكبير ذي القدر

الخطير المغفور له المرحوم الشيخ (محمد عبده) مفتي الديار المصرية
كان أسكنه الله أعلى فراديس الجنان وذلك بالمطبعة الخيريه
بمصر القاهرة المعزيه لمالكها ومديرها المتوكل على العزيز الوهاب
حضرة الافخم (السيد عمر حسين الخشاب)
في شهر رمضان سنة ١٣٢٤ من هجرة
سيد ولد عدنان سيدنا محمد صلى الله
عليه وسلم مالاح بدر
التمام وفاح مسك
الختام



